عِمارةُ الأرضِ بالعابِدين

كيف أحدث الوحي هذا التحوّل الهائل في الإنسانِ والمجتمعات؟

عِمَارَةُ الأَرْضِ بِالعَابِدِينَ

كيف أحدث الوحي هذا التحوّل الهائل في الإنسان والمجتمعات؟

الدكتور

محمد جلال القصاص

الطبعة: الأولىٰ

رقم الإيداع:

16966/ 2024م

الترقيم الدولي:

978-977-95-0054-6

القاهرة: +201008526072
+201110117447
+201026771992

السعودية: +966596447741

Mofakroun INT

info@mofakroun.com

www.mofakroun.com

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

عِمَارَةُ الأرْضِ بالعَابِدِيْنَ

كيفَ أحدثَ الوحيُ هذا التحوّلَ الهائلَ في الإنسانِ والمجتمعاتِ؟

الدّكتور

محمّد جلال القصّاص

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

الفهرس 5

سؤال... كم أرقني!.. **6**

الباب الأول: تحرير الإنسان 9

الباب الثاني: بناء الإنسان 17

الفصل الأول: التأمل والتفكر منهجًا في الحياة: 19

الفصل الثاني: الإتقان منهجًا 31

الفصل الثالث: منهجية التغيير: التكرار والتدرج 36

أولًا: التكرار:.. 37

ثانيًا: التدرج والنمو: 52

الفصل الرابع: تعامل الإسلام مع المخالفين: رؤية في الأخذ والترك من المخالف 56

الفصل الخامس: أمثلة تطبيقية على العمران: 64

بناء المدن في الإسلام:.. 64

الفصل السادس: أمثلة تطبيقية تبين أثر الكفر والعصيان في خراب العمران: 68

ظهور الفاحشة: 68

الشح والبخل:.. 69

تحريم الربا: 73

البيئة والإنسان المعاصر: 74

الخاتمة:.. **77**

الكاتب:.. **79**

هذا الكتاب:.. **80**

سؤال... كم أرقني!

في جنبات الساحة الثقافية.. وفي جنبات كل نفس يُؤرقها ضعف المسلمين سؤال ثائر لا يكاد يهدأ، وهو: **كيف أحدث الوحي (كتابًا وسنة) هذا التأثير الضخم السريع في أم القرى ومن حولها، ولا يُحدث ذات التأثير في واقعنا المشاهد؟! رغم أنه هو هو ذات الوحي، نؤمن به ونتلوه آناء الليل وأطراف النهار؟!**

ومن زاوية أخرى: إذا كانت القضية الرئيسية التي أرسل الله بها محمدًا بن عبد الله ﷺ هي تحقيق العبودية لله عز وجل يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: 36)، ويقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:25)، ويقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56)، وكان حال النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم على ما وصف الله ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ (محمد: من الآية29).وكأنَّ السجود والركوع حال ملازم لهم لا ينظر إليهم أحد إلا ويراهم متلبسين به؛ وهذا ما قرره رِبْعي بن عامر حين سُئل عن الرسالة التي يحملها أتباع محمدٍ ﷺ، قال: "اللَّهُ ابْتَعَثَنَا، وَاللَّهُ جَاءَ بِنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ"(1). **فكيف استطاع من شُغلهم العبادة إصلاح دنيا الناس؟ كيف استطاعوا تغيير الواقع تغييرًا جذريًا وفي سنوات معدودة؟!**

ومن زاوية ثالثة: **كيف استطاع هؤلاء الكرام الأفاضل سياسة الناس ولم يتلقوا تعليمًا في مؤسسات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية؟!**

---

(1) ينظر: "تاريخ الرسل والملوك" للإمام محمد بن جرير الطبري، (القاهرة، دار المعارف، 1387هـ/1967م)، ج3، ص520.

كيف تحولوا من رعي الغنم لرعي الأمم ولم يتلقوا غير الوحي (كتابًا وسنة)؟ كيف تحقق العمران من خلال الامتثال لنصوص الكتاب والسنة؟ ماذا في الكتاب والسنة حقق هذا التأثير الكبير أول مرة ولا يستطيع أن يحققه الآن رغم أنه يتلى كاملًا آناء الليل وأطراف النهار؟!

وفي القرآن الكريم ربط بين تحقيق الإيمان والتقوى من ناحية وعمارة الأرض من ناحية أخرى، مثل قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (سورة الأعراف: الآية96)، وقول الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ (سورة نوح: الآيات 10 –13)، وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ (سورة الجن: الآية16). وآيات فيها ربط صريح بين المعصية والفساد (تخريب العمران)، مثل قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة الروم: آية41)، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى:30). ولعلَّ هذا يثير سؤالًا على هذا النحو: **كيف تعمرُ الأرضُ بمن غايته عبادة الله وتعبيد الناس لله؟! وفي المقابل كيف تفسد الأرض بمن يجد ويجتهد ويطور أساليب المعيشة (المسكن والحركة)، وحقق طفرةً في الأبنية والطرقات ووسائل العيش؟!**

الإجابة في مستويين:

المستوى الأول: يتعلق بتحرير الإنسان من علائق الأرض (الانتماء الجغرافي والعرقي)؛ ومن تسلط أصحاب المال والنفوذ؛ وتمكينه من فعل ما يقدر عليه ما لم يضر غيره. وهو ما قال عنه ربعي بن عامر رضي الله عنه، وهو يشرح رسالة الإسلام للفُرس،: "اللَّهُ ابْتَعَثَنَا، وَاللَّهُ جَاءَ بِنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا"

المستوى الثاني: يتعلق بالتغيرات التي أحدثها الوحي (كتابًا وسنةً) في شخص من آمن بالله واتبع الرسول ﷺ. وذلك أن الإسلام غيّر قواعد التعامل في البيئة وغيّر كذلك بناء الإنسان ذاته.

وقد خصصت لكل مستوى بابًا، وأجملت في المستوى الأول (الباب الأول) كون التفاصيل في هذا الباب موجودة في أطروحة الدكتور جميل أكبر (قص الحق: العقل وحتمية الفساد) و "عمارة الأرض في الإسلام". وفصّلت قليلًا في الباب الثاني والذي يتعلق ببناء الإنسان. وأنا هنا أنثر الأفكار مُركزةً لعل ذا قوة ينهض ويعمق ويوسع تأصيلًا وشرحًا، وإن يسر الله وقتًا عدتُ بالشرح والتفصيل.

الباب الأول: تحرير الإنسان

الإسلام رسالة دعوية. يؤمن أحدنا ويدعو غيره للإيمان. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (1)، وقال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(2)، وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ"(3). ولم تهدأ حركة الدعوة إلى الله، فقد نَفَرَ الصحابةُ مبشرين ومنذرين، وحين سُئل أحدهم (ربعي بن عامر) عن الرسالة التي جاءوا بها.. عن الدافع الذي أخرجهم وجاء بهم فاتحين لبلاد فارس أجاب بتلك الكلمات الخالدة: "الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدًا، حتى نفضي إلى موعود الله"(4).

هذا ما رسخ في حسهم، رضي الله عنهم: أنهم جاءوا محررين للناس من عبادة بعضهم بعضًا.. من استعباد القلة للكثرة، فمن ماذا حرر الإسلام الإنسان؟ وكيف حرره؟!

---

(1) سورة يوسف: آية 108.

(2) سورة آل عمران: من الآية110.

(3) سورة فصلت: آية33.

(4) أورد الطبري في تاريخه خبر الرسل الذين أوفدهم سعد بن أبي وقاص إلى رستم، وهم ربعي بن عامر وحذيفة بن مِحْصِن والمغيرة بن شعبة، وكلهم أجمعوا على أن الذي أخرجهم هو الدعوة إلى عبادة الله، حتى تعجب رستم من توافق قولهم، ينظر: "**تاريخ الرسل والملوك**" للإمام محمد بن جرير الطبري، (بيروت، دار التراث، 1387هـ)، ج3، ص520-524.

جملةً نستطيع أن نقول أن شريعة الله التي أرسل بها محمدًا بن عبد الله ﷺ حررت المؤمنين بها من علائق الأرض (الانتماء الجغرافي)؛ ومن تسلط أصحاب المال والنفوذ؛ ومكّنت المؤمنين بها من فعل ما يقدرون عليه ما لم يضار غيرهم. **بمعنى أطلقت سراحهم في نواحيها ومكنتهم من الفعل فانطلق كل حيث يحسن وحيث يحب.**

ففي الشريعة الإسلامية أن المؤمنين بالله وما أنزل على محمدٍ ﷺ شركاء في الماء والنار والكلأ، جاء في الحديث: "المسلِمونَ شُرَكاءُ في ثلاثٍ: في الكلأ، والماءِ، والنَّارِ"(1)، وجاء في الحديث: **"لا حمى إلا لله ورسوله"، وجاء في الحديث: "من سبق إلى من لا يسبق إليه مسلم فهو له"**، وأطلقت أيديهم في التملك والتصرف، فأصبحت "الملكية" و"حق الاستخدام" و"السيطرة" على الأشياء بيد الناس لا بيد السلطة، فالدولة في الإسلام دولة الناس والسلطة تحكم بينهم لا أنها تحكمهم، وحركة المال في الإسلام تستهدف بالأساس زيادة عدد الملاك.. بمعنى تقسيم المال بين أكبر عددٍ ممكن ونزع احتكاره من القلة (أرباب السلطة أو أرباب المال)؛ وفي هذا السياق تم تشريع "إحياء الموات" بالضوابط المذكورة في كتب الفقه؛ وفي هذا السياق-أيضًا- جعلت الزكاة أعيانًا لا نقودًا، ليصبح آخذ الزكاة مالكًا وعاملًا وبعد عام أو عامين يصبح مزكيًا، وفي هذا السياق، أيضًا، فرض توزيع المال العام كله (مال الصدقات(2)، والغنائم(3)، والفيء(4)، وغير ذلك) في نفس المكان الذي يخرج منه، وما زاد عن

---

(1) أخرجه أبو داود، وغيره، واللفظ له. وصححه الألباني.

(2) ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (التوبة: 60).

(3) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ".

(4) ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ".

حاجة أهل المكان (البلد/ المدينة) يُدفع للسلطة المركزية **لتوزعه لا لتحتفظ به**. بمعنى أن الشريعة نزعت المال (تملكه، أو السيطرة عليه والتحكم فيه[إدارته]) من السلطة. وهذا يعني بالمآل إقصاء السلطة (الدولة) عن التحكم في حركة الناس (المجتمع) إذ أن المال من أهم أدوات السيطرة، وهو الأداة التي تتحول إلى غيرها من الأدوات، فمثلًا: يشارك المال في صناعة الفكر بالإنفاق على من لهم قدرة على انتاج المعرفة وضبط صياغتها في كتب أو محاضرات؛ ويشارك في إيجاد معتنقي الفكر (تصنيع النخبة)، ويشارك في إيجاد أدوات تمكين الفكر من صناعة الواقع كالأبنية المتخصصة والمناهج المتخصصة ووسائل التعلم (كتب وحاسوب...) ونحو ذلك؛ بمعنى أن المال إن أمسكت بيه يد ذات إيمانٍ ووعي وجِدٍ غيّرت به الإنسان وغيرت به واقع الناس.

ولذا قدّم الجهاد بالمال في كل آي الذكر الحكيم، مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [1] باستثناء آية التوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾[2].

وحين نتأمل في دورة رأس المال في الإسلام (مصدره، وطريقة إنفاقه، أو المصادر التي يوزع فيها) نجد أن القيمة الكبرى التي تكمن خلف كسب المال وإنفاقه هي التمكين للدين، أو إعانة الناس على تحقيق العبادة، وهذه بعض الأمثلة:

يُعان ابن السبيل من المال سواءً أكان محتاجًا أم لا، ولا يطالب بثمن إعانته حين يعود لأهله، بل لا يُسأل أميسور يُقرض؟ أم معسر يعان دون مقابل؟ والهدف هو تأمين الطريق ليتدفق الناس بأشخاصهم وأشيائهم، آمنين مطمئنين، ولا يتجمعون في أماكن محددة بل ينتشرون في الأرض كما أمر الله ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا

(1) سورة التوبة: آية 20.

(2) سورة التوبة: من الآية 111.

مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [1]، ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [2]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا الأمان ينعكس على المجتمع ككل فيتحرك الناس حيث شاءوا، أو حيث الخيرات المنتشرة في بقاع الأرض يستخرجونها فينتفعون هم بها ويفيض الخير على الجميع.

إن رعاية ابن السبيل من مال الزكاة ومن المال العام تحقق قيمة عليا في الإسلام وهي إلغاء المركزية.. أو تحريك الناس للتعرف على آيات الله في خلقه وعمارة الأرض والإفادة بما فيها من خيرات، وآيات الحث على السعي (السير) في الأرض كثيرة. بخلاف العلمانية المعاصرة التي تعمل على جذب الناس للمدن لإحكام السيطرة عليهم وتوجيههم في أنماط سلوكية محددة. وحين لا يستطيعون السيطرة الناس (كمدينة أو كدولة) تصبح المدن أداة ضغط على ساكنيها، حيث يلجأ القوي (الباحث عن السيطرة) إلى تدمير المدن. ولك أن تتأمل في حروب العلمانية المعاصرة ستجد أنها تستهدف –بالأساس– تخريب العمران، أو استخدام التخريب أداة للسيطرة على من يخالفهم (غزة، بغداد، اليمن، سورية، ليبيا،،،)، ودون العمل المسلح ضد المدن مستوى آخر من السيطرة على المدن وساكنيها وذلك عن طريق التحكم في الخدمات (الماء والكهرباء والسلع الغذائية) فإن عصت المدينة سهل حصارها وخنقها حتى تطيع السائد. ولا تنظر في مستوى دولة (سلطة مع من تحكمهم في ذات الدولة) ولكن انظر للفعل الدولي (الدول ضد بعضها). **ولذا فإن من الواجب إعادة قراءة بناء المدن في سياق السيطرة وتحريك الناس (الاستبداد) وأن الخير في الانتشار.. في أن نطبق النموذج الإسلامي.**

(1) سورة الجمعة: آية 10.

(2) سورة الملك: من الآية67.

وفي الإسلام يُعان أصحاب المروءات حين يَغرمون لتبقى المروءة وما يترتب عليها من إصلاح ذات البين، فمن خلال الواقع المعاش (أعني تحديدًا الخلاف بين الناس وخاصة الأقارب) يظهر بوضوح أن كثيرًا من المشاكل الاجتماعية تحل بالغارم.. بطرف ثالث (غارم) يدخل بين المختصمين ويتحمل المختلف عليه،.. بمعنى أن المشاكل تتفاقم لفقدان ذوي المروءات من المؤمنين.. أولئك الذين يسعون للصلح بالكلمة الطيبة وبتحمل الضرر من أموالهم، حفظًا للمودة وإصلاحًا لذات البين، وما يترتب على ذلك من إيجاد مجتمع آمن مطمئن قليل الكلفة (المادية والمعنوية) في تفاعلاته الاجتماعية.

وتُدفع الزكاة للفقراء والمساكين أعيانًا من جنس المال الذي وجبت فيه الزكاة في الغالب، وذلك ليتمكن الفقير من العمل والإنتاج، فيتحول، بالوقت، إلى كفاية نفسه والمشاركة في الإنتاج؛ لا أنه يأخذ مبلغًا من المال (في العادة يكون قليلًا) ينفقه على ضروريات الحياة ثم يأتي ليأخذ غيره... ويبقى فقيرًا.

وقل مثل ذلك في كفاية العاملين على الزكاة والمؤلفة قلوبهم وغيرهما ممن ذكر الله في مصارف المال(1).

وبهذا تمكّن الناسُ من الانتشار في الأرض.. كل حيث يطيب له العيش، وكل حيث يحسن أو حيث يحب من مجالات الحياة؛ ومما أعان على ذلك أن جُعل التفاضل بالتقوى لا بالصنعة ولا بالمكان الذي يسكن فيه، والأماكن المقدسة تزار ثم يرتحل عنها.

---

(1) ينظر: "إعلام المسلمين والمسلمات بأن إنفاق الزكاة سياسات" إعداد مركز الإمام الغزالي للبحوث والدراسات.

وتمكن الناس- أيضًا- من إدارة شئونهم وفقًا لما يحقق مصالحهم كأفراد وتجمعات. فكان المجتمع في الإسلام مدني كله. بمعنى أنه يدار من الأفراد العاديين لا من السلطة (نخبة المال والنفوذ [الأوليجارشية]). بل لا تتدخل السلطة إلا في أضيق الحدود.

وقد أدى عدم الربط بين الإنسان والأرض التي يعيش عليها، وكذلك حث الناس على السعي في الأرض، وتمكينهم من الخيرات المقدرة في الأرض كل حسب طاقته، فالأرضُ -في الإسلام- لا تحتقر ولا تباع ابتداءً(1)، وكذلك جعل التفاضل بالتقوى لا بالمال ولا بالصنعة(2).. أدى ذلك كله إلى أن أصبح الإنسان المؤمن مفعّلًا بأقصى طاقة. فلا مانع يمنعه من الفعل إن أراد أن يفعل ما يقدر عليه قدرةً شرعيةً وذاتيةً.. أدى إلى تفعيل المؤمن بأقصى طاقة ممكنة، **ومثّل نموذجًا لم يره الناس من قبل في ظل النظم التي حكمت قبل الإسلام**، ولذا كان تمكين الناس من الخيرات التي أودعها الله في أرضه من أهم الأسباب التي جعلت الناس يسارعون للدخول في دين الله أفواجًا، بجانب الأبعاد القيمية في تعريف الناس بخالقهم، وما يريد منهم، وماذا ينتظرهم بعد الموت إن أطاعوا أو عصوا(3).

---

(1) وذلك من خلال شريعة الإحياء: وفي الحديث: "مَن أحيا أرضًا ميتة، فهي له"، وقوله ﷺ: "مَن عمَّر أرضًا ليست لأحد، فهو أحق بها". فليس في الإسلام بيع الأرض الموات للناس، وإنما الأرض مجردة بلا قيمة.. القيمة لما أقيم عليها.

(2) ولذا كان التنافس في تحصيل المكارم لا في تحصيل أعراض الدنيا.

(3) تفسيرالانتشار السريع للإسلام واستقراره في المجتمعات التي دخلها يصعب تفسير فقط بالأبعاد الخلقية، وإنما بالأبعاد الثلاثة مجتمعة: علاقة الناس بربهم (تعريفهم بالله.. الشعائر وما يجب أن يوقر في القلب تعظيمًا وإجلال لله ربنا الكبير المتعال)، وعلاقتهم ببعضهم، وتمكينهم من الخيرات (ضبط السلطة بعيدًا عن المال، وجعل الدولة دولة الناس وتسلط تحكم بينهم لا أنها تحكمهم)، وظني أن البعد الأخير هو الأهم عند عوام الناس فالناس جبلوا على السعي خلف مصلحتهم المادية.

وهذا المستوى في الإجابة على التساؤلات التي أرقتني فصّل فيه الأستاذ الدكتور "جميل أكبر" في مشروعه الفكري الموسوم بـ "قَصُّ الحق: العقل وحتمية الفساد" و"عمارة الأرض في الإسلام"[1]. ولا داعي للتكرار فكلامه منشور مكتوبًا ومرئيًا لمن شاء أن يرجع إليه.

(1) ينظر: "قص الحق: العقل وحتمية الفساد" للأستاذ الدكتور جميل أكبر.

الباب الثاني: بناء الإنسان

يُعنى هذا الباب ببيان المستوى الثاني في التغيرات التي أحدثها الوحي (كتابًا وسنةً) في شخص من آمن بالله واتبع الرسول ﷺ، وذلك أن الوحي أعاد صياغة الإنسان من جديد.. أحياه بعد موات، كما قال العليم الخبير سبحانه وتعالى وعز وجل: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ (الأنعام: 122)، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: 52)، فكان الوحي بمثابة الحياة للناس.

تمثل هذا الإحياء في غرس منظومة من القيم (المبادئ/ العقائد) والحركيات (الآليات)[1] فيمن آمن بالله واتبع الرسول ﷺ، غيّرت من آمن تغييرًا جذريًا في نفسه وفي تفاعلاته، وبالتالي غيّرت المجتمع، فعُمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل الإسلام ليس هو عمر بعد الإسلام، ومكة ويثرب قبل الإسلام ليست هي مكة والمدينة بعد بعثة محمد ﷺ؛ **ومن أهم هذه القيم:**

(1) تتشكل القيم والمبادئ في هيئة منظومة.. بمعنى أن الأخلاق لا تتواجد منفردة أو متضاربة. فتكون صفات الشخص (أو الجماعة) إيجابية ويشذ خلق سيء أو موقف سيء، وقد تكون سلبية ويشذ خلق جيد أو موقف جيد. فمع الإيمان الصدق والصبر، والعفاف ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: 35). وإن الحديث عن فصل القيم والتعامل مع الناس حسب الموقف هو حديث من هناك.. من عند غير المؤمنين.. بل من عند غير العقلاء.

أولًا: الاقتصار على القرآن الكريم والسنة النبوية والأخذ من الآخر بما يتناسب مع الوحي.. بمعنى ضبط الوحي فهمًا، أو فهمًا وحفظًا، والانطلاق به، ومنه لغيره.

ثانيًا: التأمل (التفكر/ التدبر) أو: تكوين عقلية تعمل الفكر فيما يرد عليها (عقلية نقدية).

ثالثًا: جعل التفاضل بين الناس بالتقوى، لا بالمال، ولا بالحسب والنسب، ولا بغير ذلك مما عرف في الجاهلية وبين الأمم الأخرى.

رابعًا: جعل الإتقان قيمة في حد ذاته. سواء في العمل الحسي أو المعنوي.

ولبناء هذه القيم كانت المنهجية المتبعة هي: التكرار، والتصريف، والتدرج (النمو التدريجي) في تحقيق هذه الخصال.

وهذا ما سأحاول، بحول الله وقوته، بيانه، مع الأخذ في الاعتبار أن المستوى الثاني والأول مرتبطان فلا يمكن صياغة إنسان بالطريقة الشرعية دون أن يتمكن من حقوقه (المستوى الأول)، **وغياب منظومة الحقوق هو السبب الرئيسي في تراجع عمليات التربية والبناء الإنساني في هذه الأيام.. يحاولون بناء إنسان على المنهج الرباني (الوحي) دون إعطائه ذات الحقوق التي أخذها الصحابة والتابعون لهم بإحسان، ولذا تتعثر التجارب**، وفي أحسن الأحوال تكون التجارب التربوية ذات نتائج محدودة.. تكون النتيجة -إن وجدت- في المجال الخاص (علاقة الفرد بالله الخالق الرازق، وعلاقته بأهله.. تعاملاته الفردية)، ولا تكون كما ينبغي في المجال العام (علاقة الناس بالسلطة ومؤسساتها، وعلاقتهم ببعضهم)، بل يفيد المفسدون من الفعل الوعظي والتربوي، وهذا واقع مشاهد.

الفصل الأول:
التأمل والتفكر منهجًا في الحياة:

أُمرنا بالتأمل (التدبر) في كل شيء. وفي جميع الأحوال. وأمرًا مكررًا.. مُصرّفًا في كتاب الله. فلا تكاد تقرأ في كتاب الله ساعة إلا وتجد دعوة للتدبر (التفكر والتأمل).

وأهل العلم على أن التدبر يعني التفكر والتأمل في الشيء وعاقبته (مآلاته). وبالتالي فإن معنى التدبير أن يدبر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته(1). قلتُ: والتأمل في الشيء وعاقبته هي مهام البحث العلمي الحديث. فللبحث العلمي الحديث ثلاث مهام رئيسية، هي: الوصف (رصد الظاهرة محل البحث)، والتفسير (التأمل في الشيء والكشف عن أسبابه [متغيراته])، والتعرف على المآلات في المدى القريب والمتوسط والبعيد (عاقبة الأمور)(2).

أمرنا بالتدبر في كل شيء، وأول ذلك في الكبير المتعال ربنا الخلّاق العليم، سبحانه وتعالى وعز وجل، وما له من أسماء حسنى وصفات عليا وأثر ذلك فيما نشاهد من العالم. فلا تكاد تقرأ في كتاب الله حتى تجد مركزية مطلقة لله وحده لا شريك له.. بمعنى أن كل شيءٍ من الله، وكل شيء يرجع إلى الله، وكل شيء قائم بالله.. فالله خالق كل شيء: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(3). خالق الأشياء

(1) ينظر: "فتح القدير" للإمام الشوكاني، (بيروت/ دمشق، دار الكلم الطيب، دار ابن كثير، 1414)، ج1، ص567.

(2) وللبحث العلمي هدف رابع خفي، وهو توجيه المتلقي، وشواهده كثيرة فيما يقدم في البرامج الحوارية.

(3) سورة غافر(40): الآية62.

وأفعالها، ﴿اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]. والله قائم على كل نفس بما كسبت ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [2]. والله على كل شيءٍ وكيل، ﴿ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الأنعام: ١٠٢).

والله هو الذي اختار الرسل من الملائكة ومن الناس، يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج: 75)، ويقول الله تعالى: ﴿اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

والله هو الذي أرسل الرسل، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:36].

والله هو الذي أعدّ الرسل للرسالة، فسادة البشر هؤلاء صنعة الله لا صنعة آباءٍ ومجتمع. وتدبر: يقول الله تعالى في حق موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص:14]، ويقول الله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:41]؛ وفي حق يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص:14] يعني ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ويعني: النبوة، إنه حباه بها بين أولئك الأقوام[3]، يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن

(1) سورة الصافات(37): الآية 96.

(2) سورة الرعد: من الآية 33.

(3) ينظر: "**تفسير القرآن العظيم**" للإمام إسماعيل بن كثير، (القاهرة، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420هـ/1999م)، ج4، ص378.

تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[1] ويقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين﴾ [يوسف:56]، والتمكين هنا إشارة إلى جميل صنع الله به في حياته كلها[2]، وفي قصة من مفردات الحياة اليومية ينسبها الله لنفسه أيضًا، مع أن السياق الظاهر أنها من تدبير يوسف، عليه السلام، يقول الله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم﴾ [يوسف:76]، "والكيد يطلق على التدبير في الخفاء للخير أو للشر سواء. وإن كان الشر قد غلب عليه. وظاهر الأمر هنا أنه شر يحل بأخيه وهو شر يحل بإخوته لإحراجهم أمام أبيه. وهو سوء -ولو مؤقتًا- لأبيه. فلهذا اختار تسميته كيدًا على إجمال اللفظ وبالإلماع إلى ظاهره. وهو من دقائق التعبير"[3]. والمقصود أن الأمر كله لله، هو المدبر، وهو الذي يرفع درجاتٍ من يشاء.

ويقول الله تعالى في حق لوط عليه السلام: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِين﴾ [الأنبياء:74]، والمعنى: "وآتينا لوطا، ﴿حُكْمًا﴾ وهو فصل القضاء بين الخصوم، ﴿وَعِلْمًا﴾ يقول: وآتيناه أيضا علمًا بأمر دينه، وما يجب عليه لله من فرائضه"[4]؛

---

(1) سورة يوسف(12): آية 21.

(2) ينظر: "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"، للإمام عبد الرحمن بن محمد الثعالبي، (بيروت، دار إحياء التراث، 1418هـ)، ج3، ص334.

(3) النقل عن الظلال في تفسير الآية الكريمة، وتدبير (كيد) الله ليوسف في أن حكم إخوته لدينهم هم لا لدين الملك الذي كان يعاقب السارق دون أن يستولي عليه.

(4) ينظر: "**جامع البيان في تأويل القرآن**" للإمام محمد بن جرير الطبري، مرجع سابق، ج16، 318.

وفي حق الخضر، عليه السلام، ويقول الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:65] والمقصود بالرحمة النعمة وبالعلم علم الباطن إلهامًا ولم يكن الخضر نبيًا عند أكثر أهل العلم[1]؛ وفي حق ذي القرنين يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف:84]، والتمكين في الأرض بمعنى جعل له مكانًا وأثبته فيه[2].

وفي حق نبينا محمد ﷺ يقول الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:4]، ويقول الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[يونس:16]، ويقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[3]، ويقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[4]، ويقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾[5]، ويقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾[6].

فكل حال النبي ﷺ من الله العلي الكبير.

(1) ينظر: "**معالم التنزيل في تفسير القرآن**"، للإمام محمد الحسين بن مسعود البغوي، (القاهرة، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1417هـ/1997م)، ج5، ص188.

(2) ينظر: "**مفاتيح الغيب**" للإمام محمد بن عمر الرازي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، 1420هـ، ج12، ص484.

(3) سورة الأحقاف (46): آية 9.

(4) سورة الحاقة (69): الآيات44-47.

(5) سورة الأعراف (7): آية 101.

(6) سورة طه (20): آية99.

وفي حق بني إســرائيل، يقول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْــرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1]، ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[2]، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُون﴾[3]. فانظر كيف ينسب الله، جل جلاله، لنفسه الإرسال والإنباء، والتفضيل والنجاة.

وجملةً يقول الله تعالى﴿وَلِلّهِ غَيْبُ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون﴾ [هود:123].

والخلاصة أن إنسان القرآن صنعة الله.. ومرتبط بالله في شأنه كله، وسيأتي مزيد بيان بحول الله وقوته.

وفي مقابل هذه المركزية المطلقة لله– بما علمنا في كتابه– في كل شيء، تتمحور الوضعية حول التطور: المعرفي والعضوي[4]. **والتطور في جوهره محاولة لجعل الإنسان هو المركز.. سيد نفسه**.. وفي القرآن الكريم ما يجعلنا نجزم أن هؤلاء يتحدثون بغير علم. يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون﴾ [القصص:43]. وهذا الاستنباط (الجهل بما قبل موسى، عليه السلام،) يتوافق مع تقسيمهم للتاريخ إلى مرحلتين: مرحلة ما قبل التاريخ ومرحلة ما بعد التاريخ، وقد وضعوا الكتابة حدًا

---

(1) سورة البقرة (2): آية 47

(2) سورة البقرة(2): آية 50.

(3) سورة المائدة(5): آية 70.

(4) أشبعت هذه النقطة في دراسة بعنوان: "مقدمة منهجية لدراسة السيرة النبوية"، وهي منتشر على النت.

فاصلًا بين ما قبل التاريخ وما بعده. وسُمِّي ما قبل التاريخ بالعصر الحجري. ولا يجدون في العصر الحجري إلا أدوات فقط، يقولون كانوا يستخدمونها في حياتهم البدائية بزعمهم. وإنا نجد رسوماتهم بدون أعضاء ذكرية مما يدل على تدين فطري(1)، والله يقول: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل:36).

وأمرنا بالتدبر (التأمل) في القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: من الآية 29) ويقول الله تعالى: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" (محمد:24)، وذلك للوقوف على ما فيه من بيان محكم عن الله ربنا الكبير المتعال الخلّاق العليم، سبحانه وتعالى وعز وجل؛ وما فيه من الوعد والوعيد؛ وللاتعاظ بأحوال السابقين.. من آمن منهم ومن كفر، يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: آية 68)؛ ولمعرفة أنه محكم لا اختلاف فيه، يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 82)، وفي القرآن الكريم تفصيل كل شيء، يقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾(2)، ويقول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾(3). والقرآنُ بيّنٌ، ومبيّنٌ، وحاكم. بيّنٌ في نفسه ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا

(1) ينظر: " **الجغرافيا التاريخية: عصر ما قبل التاريخ وفجره**" لمحمد السيد غلاب، ويسري الجوهري، مرجع سابق، ص18-ص36.

(2) سورة النحل (16): من الآية89.

(3) سورة الإسراء (17): من الآية12.

الْفَاسِقُونَ﴾[1]، ومُبيّن لغيره، ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]، وحاكمًا على الناس فيما اختلفوا فيه ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[3]. ولذا نستطيع أن نقرر بوضوح أن من خلال تدبر آيات الذكر الحيكم نستطيع أن نقف على إجابة شديدة الوضوح على الأسئلة التي تتردد بيننا، وتلك الأسئلة التي تتردد في الصدور ولا تنطق بها الألسنة حرجًا أو عجزًا عن البيان. وقد وصف الله القرآن الكريم بأنه شفاء لما في الصدور، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[4]. ولذا علينا أن نرجع لكتاب الله ونحاول من خلاله فهم ما نشاهده من ظواهر: في النفس الإنسانية، والتجمعات البشرية المجتمع، والآيات الكونية الطبيعية.

وأمرنا بالتأمل والتفكر في السماء خلقًا، وحالًا، ومآلًا، يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (ق: 6)، ويقول الله تعالى: ﴿نَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190]، وأمرنا بالتأمل والتفكر **في الأرض** ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْموقِنِينَ﴾ [الذاريات: 20]، وأمرنا بالتأمل والتفكر في وأمرنا بالتأمل (التدبر) **في أنفسنا**، يقول الله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: 21]، ويقول

(1) سورة البقرة (2): الآية99.

(2) سورة النور(24): الآية99.

(3) سورة البقرة(2): من الآية 213.

(4) سورة يونس(10): آية 57.

الله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: 24 - 32].

وأمرنا بالتأمل والتفكر **في حياة الإنسان على الأرض (التاريخ) وهذا كثير في القرآن الكريم**، يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، وجاء الأمر بالتأمل خاصًا، وجاء عامًا، وجعل تفكر ساعة خير من قيام ليلة، في الحديث "تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ "، وفي حديث آخر: "تَفَكُّرَ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ دَهْرٍ مِنَ الدَّهْرِ"(1)

وأمرنا بالتأمل في جميع الأحوال. فحينًا يأمر الله عباده بالسير في الأرض من أجل النظر والتأمل ﴿قلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ (سورة النمل: من الآية 69)، وحينًا لا يكون أمرًا بل حضًّا على السير والتأمل، ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ (سورة الروم: من الآية 9) وحينًا لا يكون أمرًا ولا حضًا وإنما طلبًا رقيقًا ممن يضرب في الأرض، بحثًا عن الرزق أو مجاهدًا، أن يتأمل حال سيره، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (الأنعام:11).

بمعنى أن الله العليم الحكيم، سبحانه، في كتابه الكريم دعا إلى إعمال الفكر في كل ما يرد على الإنسان، فحتى أولئك الذين لا يستطيعون السير عليهم، أيضًا، أن يتأملوا في الأخبار التي تأتيهم ممن ساروا وشاهدوا، ويُستنبط هذا الفهم

(1) من مراسيل الحسن البصري.

من ختام هذه الآية الكريمة في سورة السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾(1)، وذَكَرَ السماع لينبه من لم يمش إلى أن يتأمل في الأخبار التي سمعها ممن مشى في مساكن السابقين وجاء يحكي عما شاهد.

ويفهم من الدعوة للتأمل في كل شيء وفي جميع الأحوال، أن الله، سبحانه وتعالى، يُرسخ التأمل منهجًا للحياة. بمعنى جعل التأمل حالة تتصف بها الشخصية المؤمنة بالله وما أنزل على رسوله ﷺ. فليس للمؤمن أن لا يفكر فيما يُعرض عليه. وهذا يعني صياغة شخصية يقظة تدقق النظر وتُعْمِل الفكر فيما يَرِدُ عليها. وقد ظهر هذا جليًا في الصحابة رضوان الله عليهم، فأثمر تأملهم وتفكرهم تساؤلات ظهرت كأنها اعتراض أو استشكال في مجالات شتى، وعلى سبيل المثال: في مكائد الحروب: "أمنزل أنزلك الله أم هي الحرب والمكيدة؟.... ليس بمنزلٍ إذًا يا رسول الله"(2)، "رأي تراه لنا أم وحي أمرك الله به... ليس لهم عندنا إلا السيف"(3)، وفي التشريعات: "أتكسر ثنية الربيع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها"(4)، "لو

---

(1) سورة السجدة: الآية 26.

(2) انظر: عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية**، (القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1375هـ/1955م)، ج1، ص620.

(3) المصدر السابق، ج2، ص223.

(4) والحديث في صحيح البخاري عن أنس بن النضر رضي الله عنه: أن الرُّبيّع وهي ابنة النضر(أخته) كسرت ثنية جارية فطلبوا الأرش وطلبوا العفو فأبوا فأتوا النبي صلى الله عليه و سلم فأمرهم بالقصاص فقال أنس ابن النضر أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله ؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها فقال (يا أنس كتاب الله القصاص). فرضي القوم وعفوا فقال النبي ﷺ: "إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره" . ينظر: "**الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)**، (بيروت، دار طوق النجاة، 1422)، كتاب الصلح، باب الصلح في الدية، ج2، ص961.

رَأَيْتُ رَجُلًا مع امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بالسَّيْفِ غَيْرُ مُصْفِحٍ عنْه"[1]. بمعنى أنها كانت شخصية يقظة تمارس التفكير والنقد وتعبر عما في صدرها بأدبٍ جمٍ دون خجلٍ. ويقبل منها[2].

نعم هذا حالهم، وهم أطوع الناس، وهو سيد الناس، رسولٌ مؤيدٌ بالوحي من الله. ﷺ. ورضي الله عنهم.

وحين يترسخ التأمل في الشخصية المسلمة فإن الناس ينصرفون إلى ما يحسنون أو إلى ما يحبون، كل يتأمل فيما يحسنه أو فيما يحبه، وذلك أن الناس متخصصون بطبعهم، وهذا واضح من مواقف الصحابة رضي الله عنهم، فمن تحدث في تحديد أرض المعركة غير من تحدث في بيان شأن الأسرى، غير من أشار بحفر الخندق. كل موقف يأتيه المعني به. وكل واحدٍ يقف حيث إمكاناته الشخصية (تخصصه) فلا يتدخل فيما لا يحسن. وحين انتشر الدين تخصصوا أيضًا: فكان بعضهم في حِلَق العلم فقيهًا كزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وعبد الله بن عباس وأبي هريرة، وكان بعضهم في القتال يدير المعارك كأبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد أو ينازل الأبطال كالحمزة بن

---

(1) صحيح مسلم.

(2) في القرآن تفرقة بين الذين ناقشوا الأحكام أو الذين سألوا أسئلة اعتراضية على الأحكام، فمنهم من أجيب إجابة واضحة تبين له ما استشكل عليه، ومنهم من كان الرد عليه عقوبة رُغم أن السؤال واضح كموسى، عليه السلام، وبني اسرئيل.. كل منهما سأل ذات السؤال ولكن الإجابة اختلفت حسب حال السائل، يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143]
ويقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: 55]، وكحال التي جاءت تجادل في زوجها.. أُجيبت إجابة واضحة، وكأنس بن النضر في الحديث المذكور في النص.

عبد المطلب والزبير بن العوام، وكان بعضهم في السياسة والحكم كأبي بكرٍ وعمر بن الخطاب، وكان بعضهم في قراءة القرآن وتعليمه كعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب، وكان بعضهم في التجارة كعبد الرحمن بن عوف؛ ثم كان الأئمة بعد ذلك: فقهاء ومحدثين: كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والليث بن سعد، ومحدثين كالبخاري ومسلم وأصحاب الكتب الستة، ومؤرخين: كابن إسحاق وابن هشام، وعلماء لغة وأدباء: كأبي الأسود الدؤلي والخليل بن أحمد وسيبويه، وعلماء في العلوم الطبيعية كالخوارزمي والبيروني.

وقد أحدث التأمل نقلة هائلة في شتى مناحي الحياة: على مستوى الاجتماع البشري وعلى مستوى العلوم الطبيعية، ويهمنا هنا بيان أن هذه النقلة الهائلة التي أحدثت طفرة كبيرة في العلوم وأسست لعمارة ممتدة إنما جاءت من الالتزام بأمرِ الله ونهيِهِ في كتابه وسنة رسولهﷺ.. امتثالًا للأمر لأنه من الله المعبود ورسوله المتبوع ﷺ، دون معرفة ما قد يترتب عليه.

أصبح التدبر (التأمل/ التفكر) حالة.. وصفٌ لازم للشخصية المسلمة. وظهر في مجالات متعددة حسب ما يحسن الشخص أو ما يحب. وكان نتيجة ذلك أن بدأ المسلمون علومًا خاصة بهم، بل **بدأ مشروع حضاري في جميع مجالات الحياة انطلاقًا من مبدأ التأمل الذي رسخه الله، سبحانه وعز وجل، في كتابه.** فأسس المسلمون علومًا نظرية لم تُعهد من قبل انطلاقًا من منظومتهم العقدية.. وفي ذات الوقت خدمةً لمنظومتهم العقدية؛ كعلم الرجال (ضبط السند، وضبط العدول في الأمة، ونبذ الأدعياء)، والفقه (الأحكام التفصيلية وقواعدها الكلية)، ودونوا التاريخ، وانطلقوا للعلوم الطبيعية بأنواعها (الفلك، والرياضيات، والكمياء،.. وغيرهم) من الحاجة الشرعية إلى هذه العلوم من ناحية، ومن منطلق التأمل الذي رسخه الله في

كتابه وسنة رسوله ﷺ ناحية أخرى. فقد سعوا لتعلم الرياضيات حين انتشرت تجارتهم ولم تعد طريقة الحساب التقليدية تكفي لحساب عملياتهم التجارية، فكان أن نشط الخوارزمي في البحث عن "الصفر" وجلبوه، ونشطوا لتعلم الفلك لضبط وقت الصلاة، ونشطوا لتعلم الهندسة والرياضيات حين اتسع العمران وكثر الناس واحتيج لتشييد البيوت الكبيرة[1]. وكانت نقطة الارتكاز- في تشييد العمران- هي توزيع الحقوق على أهلها، وهو المستوى الأول الذي أفردت له الباب الأول من هذه الرسالة. وكان كل ذلك التطور داخل المنظومة العقدية وخدمةً لها، ولم يكن تطورًا من خارجها.. بمعنى أنهم هم الذين جلبوا من الخارج ما يحتاجون إليه واستخدموه في سياقهم هم، ولم يدخل عليهم الخارج ويطورهم تبعًا لمنظومات أخرى شرقية أو غربية؛ وأيضًا لم يأخذوا ما جلبوه كما هو بل عدلوا فيه ليتناسب مع منظومتهم.

ومن أوضح الشواهد على أن النص، بما رسخه من مبدأ التأمل والتفكر وتمكين الناس من الحقوق (الإمكانات المقدرة في الأرض وعليها)، يكفي لإنشاء عمارة (نهضة) حالُ أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وذلك بما أوجده من أوليات في مجالات شتى لم يسبق إليها، وبدهي أنه لم يتصل بغيره ليتعلم منه ويتدرب على يديه[2].

---

(1) انظر: خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، **الأعلام**، (بيروت، دار العلم للملايين، 2002م)، ج7، ص116.

(2) انظر: غالب عبد الكافي القرشي، **أوليات الفاروق في السياسة والإدارة والقضاء**، (القاهرة، دار الوفاء للطباعة والنشر، 2008م).

الفصل الثاني: الإتقان منهجًا

أسس المسلمون الأوائل علومًا جديدة في عددٍ من المجالات، مثل: الفقه، وأصوله، والسيرة والتاريخ، وعلم الرجال (المتعلق بعلم الحديث)، وطوّروا علومًا قائمة كالعلوم الطبيعية (الرياضيات والهندسة والفلك..)، والأدب والبلاغة. وحين تدقق في ظاهرة تأسيس علوم جديدة وتطوير العلوم القائمة، **حين تتأمل في هذه الطفرة العلمية التي قام بها الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وهم لم يتعلموا من غير الكتاب والسنة، تجد أن الأسباب الرئيسية خمسة:**

أولها: إتقان العمل.

وثانيها: استفراغ الجهد وترك الكسل والدعة.

وثالثها: المداومة.

ورابعها: فك الارتباط بين السعي والرزق.

وخامسها: جعل التفاضل بين الناس بالتقوى والعمل الصالح لا بالمسمى الوظيفي، ولهذا ساد العلماء وأهل المروءات في الأجيال الأولى.

فهذه خمسةٌ حين تجتمع تكون المحصلة شخصية جادة تعمل للإتقان (الإحسان في العمل) لا للشهرة ولا للأجر، شخصية تستفرغ وسعها فيما تفعله، وتستمر لا أنها تعمل حينًا وتقعد عن العمل أحيانًا.

بهذه الخمسة تحوّل الإنسان من جاهلي يأتي المنكرات ما ظهر منها وما بطن إلى إنسانٍ أحدث أكبر تحولٍ وأزكى تحولٍ في تاريخ العمران البشري.

في الشريعة حث على إتقان العمل. **وجُعل الاتقان مقصودًا لذاته، بمعنى أن اتقان الفعل والقول مطلبٌ شرعي.. بل أحد أهم القيم التي رسختها الشريعة.** ويفهم هذا مما أخبرنا الله به من أنه، سبحانه وتعالى وعز وجل، مُطّلع على عمل العامل، وأن عمل العامل معروض على الله يوم القيامة، يقول الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(1). وفي حديث أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ، قال: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه"(2)؛ ومما يدل على أن الاتقان مقصود لذاته ما جاء في الحديث من الحث على تسوية القبر، يقولﷺ: "أَمَا إنّ هذا لا ينفع الميت ولا يضره، ولكن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن"(3)، بمعنى أن الاتقان هدفًا للمحبين لله ورسوله الممتثلين لأمره. ومن الأدلة ردُّ عمل من لم يتقن، ودليل ذلك المسيء صلاته.. هذا الذي لم يتقن صلاته فأمره النبيﷺ، بإعادتها(4).

---

(1) سورة التوبة: الآية 105.

(2) انظر: الإمام البيهقي، **شعب الإيمان**، (الرياض، مكتبة الرشد،1423هـ/2003م)، باب الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها، ج7، ص232. قال صاحب مجمع الزوائد، "رواه أبو يعلي وفيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وضعفه جماعة"، انظر، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (بغية الرائد)**، (بيروت، دار الفكر، 1415هـ)، كتاب البيوع، باب نصح الأجير وإتقان العمل، ج4، ص175.

(3) المرجع السابق، باب الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها، ج7، ص234.

(4) انظر: الإمام البخاري، الصحيح، مرجع سابق، كتاب الآذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت، ج1، ص151.

وأما دليل **الحث على الاستدامة** فهو ما جاء في الصحيحين: "إن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل"[(1)]، وما جاء في وصف عمل رسول الله ﷺ بأنه كان ديمة، وفي رواية: "كان إذا عمل عملًا أثبته"، ويستدل على هذا المعنى (بذل الجهد قدر المستطاع، وعدم التراخي)، أيضًا، بما جاء في الحث على العمل وعدم اليأس كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة يوسف: من الآية 87). وحديث: "إن قامتِ الساعةُ و في يدِ أحدِكم فسيلةً، فإن استطاعَ أن لا تقومَ حتى يغرِسَها فليغرِسْها".

وأما فك الارتباط بين الرزق والسعي فهو كثير في كتاب الله. فقد جعل الرزق من الله وحده بسبب أو بدون سبب. ومن الموطن الذي يجتهد فيه الفرد أو من غيره (من حيث لا يحتسب). فالسببية في الرزق غير موجودة. فربما يأخذ اثنان بذات السبب وأحدهما يعطى والثاني لا يعطى. نعم يوجد نوع ارتباط ولكن لا توجد سببية مطلقة.

ومن يتدبر آيات الرزق يجد أن فيها إخبار من الله العليم الخبير بأن الرزق منه وحده، سبحانه وتعالى، يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يبسط ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾، ﴿أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾، ويقول الله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥ﴾، ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾، حتى آية تبارك ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾

(1) المرجع سابق، كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير ونحوه، ج5، ص2201.

فعطف الأكل من رزق الله على المشي في الأرض بواو المغايرة، ولو كانت العلاقة بين المشي (السعي في الأرض) والرزق علاقة سببية لكانت التعبير فامشوا لتأكلوا من رزقه.

وهذا الفصل يرسخ قيمة عملية كبرى في تكوين الإنسان.. في ضبط تفاعلات الإنسان مع غيره، وهي أن يتقن العمل الذي يحسنه بغض النظر عن النتيجة (يدر عليه دخلًا أم لا).. أن يعمل للإتقان لا لطلب الرزق.. أن لا يحسد أحدًا أو يحقد عليه، وأن لا يتدابر. وهذه القيمة، إن وجدت، تنزع نمط التنازع بين الناس وتحل محله التعاون على البر والتقوى. ويكفي.

وأما **جعل التقوى قيمة عليا** فهو من أوضح الأمور في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وحال الصحابة رضوان الله عليهم، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (1)، ويجب أن نستحضر هنا أن التقوى قيمةً خُلُقيةً وليست وظيفة أو مهنة، ما يعني أنها لا تُعيقُ أحدًا من الاتجاه إلى ما يُحسنُ أو إلى ما يحب، فكلٌ يُنافسُ في تحصيلِ التقوى من حيث يحسن أو من حيث يحب، كما أن التقوى لا تتوقف على حسب أو نسب أو صفات جسدية، بمعنى أن الكل يستطيع تحصيلها والمنافسة فيها.

فكانت المحصلة أن تفرق الناس كل إلى ما يحسن أو إلى ما يحب، وكان أن استفرغ كل واحدٍ جهده فيما اتجه إليه، وأدام عمله، وأتقنه، فظهر الاتقان الذي هو التخصصية العالية (الإبداع) في شتى المجالات. وظهر الإتقانُ سريعًا. فلم يكد يمضي نصف قرن من عمر البعثة المحمدية حتى ظهرت التخصصات المختلفة في المجتمع

(1) سورة الحجرات: من الآية 13.

المسلم: الفقه، والسيرة والتاريخ، والقراءات، والحديث (علم الرجال.. الرواية، وعلم الدراية.. تفقد النص)، والأدب والشعر، ثم تتابعت العلوم الطبيعية تبعًا لحاجة المسلمين إليها، فحين احتاجوا لضبط وقت الصلاة في البلدان الجديدة التي يختلف مناخها عن مناخ مكة والمدينة، كالشام وما بعدها من الدول اتجهوا للفلك فدرسوا ما عند غيرهم وزادوا فيه انطلاقًا من ثوابتهم وبحثًا عن كفايةٍ لحاجتهم[1].

والمقصود أن هذه التخصصية، وهذا الإبداع، جاء من امتثالٍ لنصوص شرعية، ولم يكن مقصودًا لذاته. أو هذه التخصصية، وهذا الإبداع إنما جاء من أشخاصٍ تم صياغتهم- فقط- بما في كتاب الله وسنة رسوله دون الحاجة لمناهج أخرى.

(1) من أفضل من تحدث عن جهد المسلمين في العلوم التقنية الدكتور جورج صليب. له عديد من الكتب واللقاءات المتلفزة يتحدث فيها شارحًا ومدافعًا عند دور المسلمين في التقدم التقني. انظر: جورج صليبا، **الفكر العربي: نشأته وتطوره**، (لبنان، منشورات جامعة البلمند،1998م).

الفصل الثالث:
منهجية التغيير: التكرار والتدرج

جعل الله، العليم الخبير سبحانه وتعالى وعز وجل، التزكيةَ على تلاوة القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(1)، والتزكية هي التطهير "من رذائل الأخلاق ودَنَس النفوس وأفعال الجاهلية"، " فكانوا في الجاهلية الجَهْلاء يُسفَّهُون بالقول الفرَى، فانتقلوا ببركة رسالته، ويُمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء فصاروا أعمق الناس علمًا، وأبرهم قلوبًا، وأقلهم تكلفًا، وأصدقهم لهجة"(2).

فالتزكية التي جاءت بتلاوة القرآن الكريم من محمد ﷺ على أصحابه، رضي الله عنهم، أحدثت هذا التحول الهائل في الفرد وفي المجتمع (المدينة ومكة)، وفي الجزيرة العربية بين القبائل المتناحرة، وفي العالم كله (فارس، والرومان، وأفريقيا، والمغرب، والسودان، ودول جنوب شرق أسيا، والأندلس، وحيثما تلقى الناس كلام ربهم مذعنين). دون خوارق العادات كما صنع الله لنبيه موسى، عليه السلام، حين شق البحر له ولقومه، وأغرق لهم عدوهم (فرعون وجنوده). فكان القرآن الكريم علاجًا

(1) سورة آل عمران (3): آية 164. بخلاف إبراهيم عليه السلام الذي ظن أن التزكية تكون على التعلم وليس مجرد التلاوة، يقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سورة البقرة (2): الآية ١٢٩.

(2) ينظر: "**تفسير القرآن العظيم**" للإمام إسماعيل بن عمر بن كثير، مرجع سابق، ج1، ص464.

للنفوس وكاشفًا عن مواهب المؤمنين، وسجلًا جامعًا للشرائع النابعة من فطرة الله في الإنسان حيثما كان وأينما وُجد[1].

وللتزكية، التي تُحدث تغيرًا في بناء الفرد والمجتمع، أساليب كثيرة أختارُ منها أسلوبين: الأول: التكرار، والثاني: التدرج (النمو التدريجي)، واخترت هذين الأسلوبين لانتشارهما في المناهج الأرضية (الوضعية) الحديثة التي يتم من خلالها بناء الإنسان المعاصر على قيمٍ ننكر منها أكثر مما نعرف. أي من باب كشف آلية تغيير (التكرار) تعمل في المجتمع في اتجاه سلبي، ومحاولة لإبراز بُعد آخر لظاهرة التكرار في القرآن الكريم، ولبيان أن المنهج القرآني يكفي لإحداث تغيير جذري وإخراج صالحٍ مصلح بمجرد التلاوة والامتثال دون حاجة للمناهج الأرضة الحديثة.

أولًا: التكرار:

يعد التكرار من أبرز الظواهر في القرآن الكريم، سواءً تكرار اللفظ أم تكرار المعنى. وقد بين علماء الأمة بعض ما في التكرار من فوائد من ذلك: تقرير المعاني، وتأكيدها، وزيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[2] فإنه كرر فيه النداء لذلك، وإذا طال الكلام وخشي تناسِي الأول أعيد ثانيها تطرية له وتجديدًا لعهده مثل قوله

(1) لمزيد من التفصيل حول أهمية بناء الإنسان، وأنها معجزة القرآن الأولى التي غير بها الواقع دون خوارق ينظر: "**أسرار التكرار في القرآن الكريم: المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان**" للإمام محمود بن حمزة الكرماني، (القاهرة، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، د.ت) ص7-9.

(2) سورة غافر: الأيات ٣٨ – ٣٩.

تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(1)، ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(2)، ومن فوائد التكرار: التهويل والتعظيم ﴿الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾(3) "ومن فوائد التكرار موافقة الأسلوب العربي كما في تكرار ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(4) في سورة الرحمن(5).

والحقيقة أن التكرار مكوّن أساسي في بنية القرآن الكريم، بل هو من أساسياته، وليس أحد الظواهر البلاغية في القرآن الكريم. فبعض الآيات تتكرر كما هي، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(6)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾(7)، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ

---

(1) سورة النحل (16): الآية ١١٠.

(2) سورة النحل (16): الآية ١١٩.

(3) سورة الحاقة (69): الآيات ١ – ٣.

(4) سورة الرحمن (55): الآية ١٣.

(5)ينظر: "**الإتقان في علوم القرآن**" للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ/1974م)، ج2، ص225. وينظر: "**زاد المسير في علم التفسير**" لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، (بيروت، دار الكتاب العربي، 1422هـ)، ج4، ص208. وينظر: "**أسرار التكرار في القرآن الكريم: المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان**" للإمام محمود بن حمزة الكرماني، مرجع سابق. وذكر مثل ذلك الإمام القرطبي في تفسير سورة الكافرون، ينظر: "**الجامع لأحكام القرآن" للإمام محمد بن أحمد القرطبي**، مرجع سابق، ج20، ص226. ونقلتُ عن السيوطي كونه جمّع عددًا أكبر من فوائد التكرار.

(6) سورة يونس (10): الآية ٤٨.

(7) سورة هود (11): آية ١١٠، وسورة فصلت: آية 45.

الْمُنْذَرِينَ﴾[1] فضلًا عن الآيات التي تتكرر بألفاظ متقاربة، فضلًا عن تكرار القصص، فحين نقارن بين عدد الأنبياء الذين ذكروا في القرآن الكريم (خمسة وعشرين نبيًا ورسولًا)[2] وعددهم على الحقيقة[3] نجد أن الله اختار عددًا محدودًا من القصص وعرضه مُفرقًا، أو مكررًا، في كتابه. فلم يتعمد حصر تاريخ الأنبياء ولا تاريخ البشر مرتبًا مُفصَّلًا، بل قَصَّ الله علينا ما فيه عظةً لرسولهﷺ ولنا، قصّ علينا من أنباء مَا قد سبق، يقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾[4]، والنبأ يتعلق بما برز ووضح من الأخبار لا كل الأخبار[5]. بمعنى أن الهدف هو التربية والبناء على عدد من القيم لا حشد أكبر كم من المعارف في ذهن المتلقي.

---

(1) سورة الشعراء(26): آية 173، وسورة النمل (27): آية 58.

(2) منهم ثمانية عشر نبيًا ورسولا ذكرت أسماؤهم في موضع واحد من القرآن في سورة الأنعام، في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 83 - 86] والباقون ذكروا متفرقين في القرآن الكريم، وهم: آدم وهود وصالح وشعيب وإدريس وذو الكفل ونبينا محمد، عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

(3) عدد الأنبياء والرسل كم غفير يستدل على ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ سورة النحل (16): من الآية ٣٦، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ سورة فاطر(35): 24.

(4) سورة طه (20) آية ٩٩.

(5) ينظر: "**لسان العرب**" لمحمد بن مكرم بن منظور، (بيروت، دار صادر، د.ت)، ج1، ص162، وينظر: "**مجمل اللغة**" لأحمد بن فارس بن زكرياء الرازي، (بيروت، مؤسسة الرسالة،1406هـ/1986م)، ص 853 .

ومن خلال تتبع عدد من المفاهيم القرآنية نستطيع أن نقرر أن **التكرار في القرآن الكريم، وفي الشريعة عمومًا، أحد أهم العوامل في بناء الشخصية المؤمنة.** تلك التي تَستحضر مراقبة الله في شأنها كله، وتستحضر حال من أطاع الله من السابقين وكيف نجاهم الله من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. وحال من عصا الله وكيف أخزاهم الله في الدنيا والآخرة، وتَستحضر الجنة وما أُعد فيها من النعيم المقيم للطائعين الصالحين المصلحين والنار وما فيها من العذاب الأليم للعاصين الفاسدين المفسدين فيستقيم على ما شرعه الله له فيسعد في نفسه ويسعد به من حوله، **وهذه المفاهيم هي:**

أولها: التذكير بأن القرآن الكريم مثاني كما وصفه الله ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾[1].

ثانيها: بيان معنى تصريف الآيات في كتاب الله ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 65].

ثالثها: القراءة على مكث. أو التدبر من حيث العموم.

رابعها: الاسترسال في النص القرآني وتجنب ما يقال له "وحدة الموضوع".

خامسها: الحث على المداومة "ما دام وإن قل".

وهذا بيان مختصر، فالمقصود هو رصد الأفكار وتقديمها لمن تفرغ للبحث العلمي.

يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾[2]. والمثاني هي الأمور التي تُثنّى، أي تعاد وتُكرّر. يُثنى ذكر الأنباء والقصص وذكر الثواب

(1) سورة الزمر: آية 23.

(2) سورة الزمر (39): من الآية ٢٣.

والعقاب[1]. وعند الطبري عن ابن عباس، رضي الله عنه، قال: "كتاب الله مثاني، ثنى فيه الأمر مرارًا". وتعني ﴿مَثَانِيَ﴾، أيضًا، "مُردد، ردد موسى في القرآن وصالح وهود والأنبياء في أمكنة كثيرة"[2].

والتكرار (التثنية) طَرقٌ للمعنى بأساليب مختلفة كي تتضح الموعظة في حس المتلقي، ولذا نص العلماء على أن القرآن يفسرُ بعضه بعضًا، أو يوضح بعضه بعضًا[3]. **ومن الأمثلة على ذلك، وصف حال الجبال يوم القيامة في القرآن الكريم**[4] حيث جاء نفس المعنى بأساليب مختلف، وتدبر:

(1) ينظر: "**غريب القرآن**"، للإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة، (بيروت، دار الكتب العملية 1398هـ-1978م)، وذهب أهل العلم إلى أن المقصود بالمثاني في قوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: 87]، هي سورة الفاتحة بخلاف طاووس فقد ذكر أنها القرآن كله يستدل بآية الزمر ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر: 23]. ويكون معنى مثاني هنا أنها تثنى (تكرر) في الصلاة، وقد جمع ابن كثير أقوال العلماء في هذا المعنى ينظر: "**تفسير القرآن العظيم**" للإمام إسماعيل بن عمر بن كثير، مرجع سابق، ج1، ص103.

(2) ينظر: "**جامع البيان عن تأويل آي القرآن**" للإمام محمد بن جرير الطبري"، مرجع سابق، ج20، ص192

(3) ينظر: "**تهذيب اللغة**" لمحمد بن أحمد الأزهري الهروي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، 2001م)، ج4، ص70. وينظر: "**لسان العرب**" لمحمد بن مكرم بن منظور، مرجع سابق، (بيروت، دار صادر، 1414هـ)، ج15، ص143.

(4) وفي القرآن الكريم أن الجبال تسجد، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ سورة الحج (22): ١٨، وأنها تسبح ، يقول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ سورة الأنبياء (21): ٧٩، وأنها أوتاد للأرض، وأنها تكاد تخر هدًا من دعوى الولد لله.. كأنها تسمع وترى وتتفاعل مع أحوال الناس حبًا لربها العظيم الكريم.

يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾(1)،" أى: تسير في الجو. أو يذهب بها، بأن تجعل هباء منبثا"(2)

ويقول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: 105 – 107]، ﴿قَاعًا﴾ أرضا ملساء، ﴿صَفْصَفًا﴾: يعني مستويا لا نبات فيه، ولا نشز، ولا ارتفاع"(3)، يفسرها ما بعدها: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: 107].

ويقول الله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾(4). "أي فتتت من قولهم بسست الحنطة والسويق بالماء فتته به وهى البسيسة"(5). ﴿هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ "أي ترابًا منتشِرًا"(6).

ويقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾(7). "والكثيب جمعه الكثبان، وهي القِطَع العظام من الرمل. ومعنى ﴿مَهِيلًا﴾ سَائِلا قد

---

(1) سورة الكهف (18): الآية ٤٧.

(2) ينظر: "**الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**" للإمام محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، (بيروت، دار الكتاب العربي، 1407هـ)، ج2، ص726.

(3) ينظر: "**جامع البيان عن تأويل آي القرآن**" للإمام محمد بن جرير الطبري"، مرجع سابق، ج16، ص162.

(4) سورة الواقعة (56): الآيات ٥ – ٦.

(5) ينظر: "**المفردات في غريب القرآن**" للحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني)، (بيروت، دار القلم، 1412هـ)، ص122.

(6) ينظر: "**غريب القرآن**" للإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة، مرجع سابق، ص445.

(7) سورة المزمل (73): الآية ١٤.

سيلَ، وَأَصْل مَهيل مَهْيُول، يقال تراب مهيل وتراب مهيول أي مَصْبُوب"[1].

ويقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾[2]. أي "من أصلها، فكانت هباء منبثًا"[3].

ويقول الله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[4] " أي لا شي كما أن السراب كذلك: يظنه الرائي ماء وليس بماء. وقيل: سيرت نسفت من أصولها. وقيل: أزيلت عن مواضعها"[5].

ويقول الله تعالى: ﴿وَمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾[6] والعهن هو الصوف المصبوغ[7]، ووصفت بذلك " لأن ألوانها مختلفة، كألوان العهن"[8]

ذات المعنى (زوال الجبال يوم القيامة كأنها لا شيء مع ضخامتها في حس الناس في الدنيا) يُكرر (يُثنِّي) بأساليب شتى. كل آية مثناة للأخرى تبين معناها

(1)ينظر: "**معاني القرآن وإعرابه**" للإمام إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، (بيروت، عالم الكتب، 1408هـ/1988م)، ج5، ص242.

(2) سورة المرسلات (77): الآية ١٠.

(3) ينظر: "**جامع البيان عن تأويل آي القرآن**" للإمام محمد بن جرير الطبري"، مرجع سابق، ج23، ص590.

(4) سورة النبأ (78): الآية ٢٠.

(5) ينظر: "**الجامع لأحكام القرآن**" للإمام محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مرجع سابق، ج19، ص176.

(6) سورة القارعة (101): الآيات ٤ – ٥.

(7) ينظر: "**المفردات في غريب القرآن**" للحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني)، مرجع سابق، ص592.

(8) ينظر: "**معاني القرآن للفراء**"، للإمام يحي بن زياد الفراء، (القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت). ج3، ص287.

وتوضحه. أو ذات المعنى يطرق من أبواب مختلفة، ليستقر في حس المتقي. وكذلك الحث على المرور المتكرر على كتاب الله.. التلاوة الدائمة، أو التدبر، أو الدراسة، فهذا تكرار أيضًا.. تكرار للنص كله بشكل دائم. فقد أمرنا أن نرد القرآن الكريم كثيرًا تلاوةً وتعلمًا وتعليمًا، يقول الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾[2]. والدراسة: القراءة بتمهل للحفظ أو للفهم"[3].

ومما يؤكد على أن التكرار مقصود بهدف التذكير وترسيخ القيم في حس المتلقي ومن ثم التأثير على بنائه الفكري والتأثير في سلوكه بين الناس ما ذكره العليم الخبير في كتابه من **تصريف الآيات**[4]، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾[5]، "وأصل معنى التصريف التغيير والتبديل لأنه مشتق من الصرف وهو الإبعاد. وكني به هنا عن التبيين والتوضيح لأن تعدد أنواع الأدلة

---

(1) سورة آل عمران (3): الآية ٧٩.

(2) سورة الأعراف (7): من الآية ١٦٩.

(3) ينظر: "**تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**" للشيخ محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج7، ص422. وفي كتب التفسير أن الآية ذم لليهود بأنهم علموا ما في الكتاب علم دراسة ثم تركوا العمل به. يعظنا أن نكون مثلهم. والمقصود هنا بيان الحث على معنى الدراسة.

(4) والتصريف غير البيان المذكور في قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: 75]، وغير التفصيل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: 55].

(5) سورة الإسراء (17): الآية ٤١.

يزيد المقصود وضوحا"[1]. ﴿صَرَّفْنَا﴾ بينا[2]، ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾[3]، "كيف نتابع عليهم الحجج ونضرب لهم الأمثال والعبر ليعتبروا ويذكروا فينيبوا"[4]. فالتصريف التغيير. بمعنى أنه يأتي المسألة الواحدة ويذكرها بصور شتى يغيّر فيها حتى يوصلها لك، كما مرّ بنا في المثال الخاص بوصف ما يحدث للجبال يوم القيامة. ومما يبين أن تصريف الآيات إنما يكون ليفهم المتلقي مراد الله من خلقه، وبالتالي يخشع قلبه ويمتثل بجوارحه، قول الله تعالى :﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، والمعنى "﴿نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾" نُبينها ونُوضحها ونُقرها" ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أَيْ: يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه"[5].

واستحضار التكرار والتصريف يوضح تكرار بعض الأسماء والصفات بألفاظ أو معانٍ متقاربة، مثل: الخالق البارئ المصور البديع، والعلي والمتعال، والكبير والعظيم والصمد والملك ومالك الملك، فهذا التنوع من باب التصريف، أو إتيان ذات المعنى من طرق متنوعة ومتقاربة لترسخ في الأذهان بالتكرار والتصريف،

---

(1)ينظر: "**تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**" للشيخ محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج26، ص55.

(2) ينظر: "**إعراب القرآن**" لأحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1421هـ).

(3) سورة الأنعام (6): من الآية ٤٦.

(4) ينظر: "**جامع البيان عن تأويل آي القرآن**" للإمام محمد بن جرير الطبري"، مرجع سابق، ج9، ص251.

(5) ينظر: "**تفسير القرآن العظيم**" للإمام إسماعيل بن عمر بن كثير، مرجع سابق، ج3، ص277.

ولذا يجمل أن يشرح كل مجموعة من الأسماء والصفات مع بعضها، كالتي للخلق، والتي للملك والتوكل، والتي للقيام على الخلق بما يتعلق بمعنى الربوبية، وهكذا

ومما يؤكد، أيضًا، على أن تكرار الألفاظ والمعاني على المتلقي مقصود لبنائه منظومته العقدية ومن ثم أنماط سلوكه بين الناس، ما حثنا الله عليه من **تدبر كتابه، وقراءته على مكث**، فقد جعل الله التدبر مقصودًا، بل جعله غاية من غايات إنزال كتابه، يقول الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(1)، وامتدح من تدبر ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾(2) " أي لم يتغافلوا عنها: فكأنهم صمٌّ لم يسمعُوها، عميٌ لم يرَوْها"(3).

وأنكر، سبحانه وتعالى، على من لم يتدبر كتابه، يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء: 82، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد: 24. وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتَفَهُّمَه وتَعَلُّمَه والعمل به، أمر لا بد منه للمسلمين.

"ومن تدبر كلامه، عرف الربَّ – عز وجل –، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تَفَضُّله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فَرْضِ عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذَّره مولاه الكريم، ورغب فيما رَغَّبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره، كان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال،

(1) سورة ص (38): الآية ٢٩.
(2) سورة الفرقان (25): الآية ٧٣.
(3) ينظر: "**غريب القرآن**"، للإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة، مرجع سابق، ص315.

وَعَزَّ بلا عشيرة، وأَنِس بما يستوحش منه غيره، وكان هَمُّه عند التلاوة للسّورة إذا افتتحها: متى أتعظ بما أتلو؟! ولم يكن مراده: متى أختم السّورة؟! وإنما مراده: متى أعقل عن الله الخطاب؟! متى أزدجر؟! متى أعتبر؟! لأن تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة"(1)

يقول الله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾(2). ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾، أي على تُؤدة وترتيل وترسل"(3).

ومما يبين أن التكرار مقصود، وأنه أحد أهم الأدوات المعرفية لبناء الشخصية المؤمنة الصالحة المصلحة، التي تعمر الأرض: تقسيم الصلوات على اليوم والليلة، وكذلك الأذكار ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾(4). حالة من الضبط الدائم للشخصية بتذكيرها بالله والإتيان بها واقفةً بين يدي الله تتلو كتابه وتسبح بحمده، وتستغفر لذنبها، وتسأل الله من فضله العظيم، وربنا الصمد، الكريم المنان، سبحانه وعز وجل.

---

(1) ينظر: "**أخلاق أهل القرآن**" للإمام محمد بن الحسن بن عبد الله الآجُرِيُّ، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1424هـ/ 2003م)، ص36.

(2) سورة الإسراء (17): الآية ١٠٦.

(3) ينظر: "**معالم التنزيل في تفسير القرآن**" للإمام الحسين بن مسعود البغوي، (القاهرة، دار طيبة، 1417هـ/ 1997م)، ج5، ص135.

(4) سورة طه (20): الآية ١٣٠.

وكذلك **الحث على المداومة على العمل**، وفي الحديث: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ"[1]، والمعنى " ما دام أي ما استمر في حياة العامل وليس المراد حقيقة الدوام التي هي شمول جميع الأزمنة"[2]

ومما سبق نستطيع أن نقرر بيقين أن **التكرار في الذكر الحكيم، والتكرار في الفرائض وما يتبعها من نوافل كالصلاة والصيام (الاثنين والخميس وثلاثة أيام من كل شهر) من مقاصده بناء الإنسان.. أو صنع عاداته وتقاليده (تنميط[3] سلوكه)** ففي القرآن الكريم عددٌ محدودٌ من القصص تمثل كل قصة نموذجًا محددًا من انحرافات البشر وتمثل، أيضًا، نموذجًا للثبات على القيم والمبادئ في وجه هذا الانحراف، بأسلوب المقارنة بين حال من آمن وحال من كفر في الدنيا والآخرة. ويستخدم التكرار بذات الألفاظ لترسيخ التشابه بين أنماط البشر وبين مآلات من آمن ومآلات من كفر.

(1) ينظر: "**الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه" للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، (بيروت، دار ابن كثير، 1407هـ/1987)**، مرجع سابق، كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير ونحوه، ج5، ص2201.

(2) ينظر: "**فتح الباري بشرح صحيح البخاري**" للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (بيروت، دار المعرفة، 1379)، ج10، ص314.

(3) النَّمَطُ: طريقة وأسلوب وشكل أو مذهب. وهم على نمط واحد أي متشابهون. والزَمْ هذا النمَطَ، أَي الْزَمْ هَذَا المَذْهبَ والفَنَّ وَالطَّرِيقَ ينظر: "**لسان العرب**" لمحمد بن مكرم بن علي بن منظور، مرجع سابق، ج7، ص417.

ويحدثُ تكرارٌ غيرُ مُخلٍ، ففي كل عرضٍ إضافةٌ- باعتبارِ السياقِ-، وفي كلِّ عرضٍ إظهارٌ لبيانٍ بهيٍ عطرٍ عالٍ منفردٍ أخَّاذٍ، وتكون المحصلةُ أن الذي يقرأُ كتابَ الله يمرُّ عشرات المرات على عدد محدود من المفاهيم والقيم المركزية والقصص الهادفة التي تُثَبِّتُ هذه المفاهيم، ويمرُّ عشرات المرات على النماذجِ المثاليةِ لحزب الرحمن، وهم الأنبياءُ ومن تبعهم بإحسان، ورؤسِ الشرِّ وهم الشياطينُ ومن استجاب لغوايتهم. بمعنى: تُعرض القيمُ من خلال النماذج المثاليةِ لها. ومن ثم **يحدثُ تَنْمِيطًا للشخصية**. بمعنى أن التكرار يستخدم لتقرير المعاني كالإنذار والتبشير، والردع عن الشر والتحفيز لفعل الخير، "ولا يمكن إدراك هذه المعاني وتلك الفوائد والدلالات إلا عن طريق هذا الأسلوب"(1).

إن من يَرد مأدبة الله (القرآن الكريم) كل يوم، ويتردد على الصلاة خمس مرات في اليوم، فضلًا عن صلاة الليل، ويحافظ على الذكر قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل وأطراف النهار، ويصوم كل أسبوع يومين وثلاثة أيام وسط كل شهر أو يصوم كل عام شهرًا.. من يمتثل هذا البرنامجِ الرباني يكون حالُه على ما وصف اللهُ به عباده المؤمنين في كتابه ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾(2) ويذكر أهل التفسير أن ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: 29] جملة حالية، بمعنى "والذين معه في حال شدتهم على الكفار وتراحمهم بينهم. ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ إخبار عن كثرة صلاتهم. ﴿يَبْتَغُونَ

---

(1) ينظر: "**التكرار المعنوي في القرآن الكريم: دراسة أسلوبية دلالية**" ليحى محمد علي المهدي، رسالة دكتوراة، جامعة أم درمان الإسلامية، 1426هـ- 2005. ص297.

(2) سورة الفتح (48): الآية ٢٩.

فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: 29] أي يطلبون الجنة ورضا الله تعالى"[1].. هذا حالُ النموذجِ المثالي (الصحابةُ رضوانُ الله عليهم) أولئك الذين أمرنا أن نكون مثلهم ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

هذا المنتج (الصحابة والتابعين لهم بإحسان) تم بناؤه بما تكرر في كتاب الله من بيان لأسماء الله وصفاته، والدعوة إلى إفراده بالعبادة، وحال من كذب الرسل وحال من آمن واتبع. ودار النعيم وما فيها، ودار العذاب وما فيها. **ونلاحظ أن هذا البناء (التغيير) يحدث بمجرد المرور على كتاب الله، ولا يحتاج الأمر أكثر من التلاوة التي يعقلُ فيها صاحبُها ما يقرأُ، ويتفاعل مع ما يقرأ من تسبيح واستغفار ودعاء،** لا القراءة السريعة التي لا تدبر فيها[3]. بمعنى أنه يكفي فهمُ ما يتبادرُ للذهنِ من النصِّ، وهو التفسير الذي لا يعذر أحد بجهالته[4].. يكفي ما يحملُه النصُ على جبينه وراحتيه ويراهُ كلُّ عابرٍ عليه، لا داعي أبدًا أن نستحثَ

(1) ينظر: "**الجامع لأحكام القرآن**" للإمام محمد بن أحمد القرطبي، مرجع سابق، ج16، ص293.

(2) سورة البقرة (2) : الآية ١٣٧ .

(3) في تفسير قول الله تعالى: { وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} سورة المزمل (73): ٤، وذكروا آثارًا تفيد الحث على الترتيل بصوت تسمعه الآذان، والتفاعل مع المعاني التي يمر عليها القارئ كالتسبيح، والاستغفار، والدعاء. ينظر: "**معالم التنزيل في تفسير القرآن**" للإمام الحسين بن مسعود البغوي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1420هـ). ج5، ص166. وينظر: "**شرح صحيح البخاري لابن بطال**" لعلي بن خلف بن عبد الملك، (الرياض، مكتبة الرشدن 1423هـ، 2003م)، ج10، ص273.

(4) ورد عن ابن عباس، رضي الله عنه، أنه قال: " التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله "ينظر: ينظر: "**جامع البيان عن تأويل آي القرآن**" للإمام محمد بن جرير ينظر: "**جامع البيان عن تأويل آي القرآن**" للإمام محمد بن جرير الطبري"، مرجع سابق "، مرجع سابق، ج1، ص70.

العامة للبحث عما يخفيه النصُ لخاصة القراء من تقييد للمطلق وتخصيص للعام ونحو ذلك، فالتزكية على التلاوة كما مرّ في مقدمة هذا المبحث.

ولأن القرآن الكريم يحدث هذا الأثر الضخم لذا فإن من أساليب أهل الضلال أنهم يعمدون إلى إيجاد حالة موازية، للتشويش على القرآن الكريم حتى لا ينشغل الناس بقراءته وتدبره ومدارسته؛ ولذا، أيضًا، ظنوا أن اللغو في القرآن من مظان الغلبة على المسلمين، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(1)، "وتواصوا فيما بينهم بألا يستمعوا لهذا القرآن لأنه يغلب القلوب، ويسلب العقول، وكل من استمع إليه صبا إليه".(2)

ومثله قول الله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾(3) والمقصود هنا ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ والمعنى يدور على حالة من الغلظة والعناد والكبر وعدم الخشوع وامتلاء النفس بضد القرآن الكريم(4). فمن هذا حاله ممتلئ بالضد ومستعلي بالباطل، وعنيد لا يريد أن يسمع أو لا يستطيع أن يسمع.

ولذا فإن الذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين يذهبون إلى زخرف القول ويتركون القرآن.. يرجون الخير من غير مظانه، وربما كثرة هذه البضاعة (زخرف القول) في

---

(1) سورة فصلت (41): الآية ٢٦.

(2) ينظر: "**لطائف الإشارات**" للإمام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكاب، د.ت)، ج3، ص326.

(3) سورة النجم (53): الآيات ٥٩ – ٦٢.

(4) ينظر: "**المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم**"، (القاهرة، مكتبة الآداب، 2010م)، ج2، ص1072.

هذه الأيام هو السبب في امتلاء القلوب بما لا يجعل القرآن الكريم يحدث أثره في النفوس. يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾[1]، وزُخْرُف القول هو القول "المموَّه المزين الظاهر ينخدع ويغتر بظاهره مَن لا يتدبر"[2]، وتصغى بمعنى تميل إليه منغمسة فيه[3].

ولذا، أيضًا، فإن القرآن الكريم يستفيد منه من كان له قلب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[4]، أي لا يحدِّث نفسه بغير القرآن الكريم.

ثانيًا: التدرج والنمو:

يعد التدرج من ثوابت الشريعة، ويظهر ذلك في أمور شتى، منها: التدرج في التشريع (تحريمًا وفرضًا)، وهذا مما اشتهر من مسائل العلم، كما في تحريم الخمر وتحريم الربا، وفرض الصلاة والصيام، فلم تحرم الخمر مرة واحدة، ولم تحرم الربا مرة واحدة، ولم تفرض الصلاة بهيئتها المتعارف عليها الآن مرة واحدة، وكذلك مرَّت فريضة الصيام بمراحل حتى استقرت على حالها الموجود الآن. ففي التشريع يتم مراعاة حال

(1) سورة الأنعام (6): الآيات ١١٢ – ١١٣.
(2) ينظر: "**المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم**" لمحمد حسن حسن جبل، مرجع سابق، ج2، ص885.
(3) ينظر: "**المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم**" لمحمد حسن حسن جبل، مرجع سابق، ج3، ص1228.
(4) سورة ق (50): الآية ٣٧.

الناس وقرب عهدهم بالإيمان، وهذا بيّن من حديث أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، في الصحيح: " إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ ما نَزَلَ منه سُورَةٌ مِنَ المفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ والنَّارِ، حتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إلى الإسْلَامِ نَزَلَ الحَلَالُ والحَرَامُ، ولو نَزَلَ أَوَّلَ شَيءٍ: لا تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقالوا: لا نَدَعُ الخَمْرَ أبَدًا، ولو نَزَلَ: لا تَزْنُوا، لَقالوا: لا نَدَعُ الزِّنَا أبَدًا، لقَدْ نَزَلَ بمَكَّةَ على مُحَمَّدٍ ﷺ وإنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾[1]، وما نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ والنِّسَاءِ إلَّا وأَنَا عِنْدَهُ"[2]. قال النووي رحمه الله: "وقد كانت أمور الإسلام في التكليف على التدريج، فمتى يُسِّرَ على الداخل في الطاعة أو المرِيد للدخول فيها، سَهلتْ عليه، وكانت عاقبته غالبًا التزايُد منها، ومتى عسرت عليه أوشَك ألاَّ يدخل فيها، وإنْ دخَل أوشَكَ ألاَّ يدوم أو لا يستَحلِيها"[3].

ومنها التدرج في بناء الفرد المؤمن والمجتمع المؤمن، يقول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾[4]، "شبههم بالزرع الذي يستمر في نمائه حتّى يستوي على سوقه، يعجب الزراع فيغيظ الكافر الحاسر، فوجه الشبه مركب من التدرج في النمو، والتحول من القلة إلى الكثرة إلى الاستحكام والقوة"[5].

---

(1) سورة القمر (54): آية ٤٦.

(2) ينظر: "**الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه" للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، مرجع سابق، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، ج4، ص1910**.

(3) ينظر: "**المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**"، للإمام يحى بن شرف النووي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1392هـ)، ج12، ص41.

(4) سورة الفتح (48): من الآية ٢٩.

(5) ينظر: "**الجدول في إعراب القرآن**"، لمحمود عبد الرحمن صافي، (بيروت، مؤسسة الإيمان، 1418هـ)، ج26، ص272.

ويتضح ذات المعنى (التدرج، أو النمو) من المثال المضروب في سورة الرعد، يقول الله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾(1) "شبَّه القلوبَ الحاملةَ للعلم والإيمانِ بالأوديةِ الحاملةِ للسيلِ، فقلبٌ كبير يسعُ علمًا عظيمًا، كوادٍ كبيرٍ يسع ماءً كثيرًا، وقلبٌ صغيرٍ يسعُ علمًا قليلاً، كوادٍ صغيرٍ يسعُ ماءً قليلاً. فحملتِ القلوبِ من هذا العلم بقدرِهَا، كما سالتِ الأوديةُ من الماءِ بقدرِهَا"(2)، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتمل غثاءً وزبدًا، فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويُذهبها، بمعنى أن الهداية لا تحدث بمجرد التعرض للوحي وإنما تحدث معركة داخل الإنسان بين ما أنزل الله وما في القلوب من شهوات وشبهات، ثم يزداد الإيمان (ينمو) في القلب وتذهب الشهوات والشبهات، تمامًا كما تفعل النار في خبث الحديد ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ [الرعد: 17].

فآيات الذكر الحكيم تحيي القلوب، كما تحيا الأرض بالماء، وتنقيها من الخبث كما تفعل النار بالمعادن (3).

---

(1) سورة الرعد (13): الآية ١٧.

(2) ينظر: "**روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)**"، للإمام عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، (السعودية، دار العاصمة، 1422هـ/2001م)، ج1، ص581.

(3) كان هذا أول ما عقلت في دراسة التفسير، وذلك حال دراسة مذكرة الشيخ السعدي (أصول التفسير) في مسجد التوحيد في غمرة بالقاهرة في منتصف التسعينات.

والمقصود هنا هو الإشارة إلى أن ذلك لا يحدث بمجرد التعرض للوحي وإنما يأخذ وقتًا، فلابد من تكرار، ولعل هذا هو السبب في عطف الاستقامة على الإقرار بـ "ثم" التي تفيد التراخي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1]، فالاستقامة جاءت بعد مدة من الإقرار بربوبية الله، حدث تدرج.. نمو. حدث النمو بعد التكرار مرارًا. بعد المرور على القيم والمفاهيم مرات عديدة في أزمنة ممتدة.

نعم يكفي القرآن الكريم، أو الوحي كتابًا وسنة، لبناء الإنسان الصالح المصلح. وقد عالجت هذه المسألة من زاوية أخرى تُعنى بثمرة البناء، أو بالإنسان المؤمن حين يتحرك في الحياة وكيف أنه يعمرها من خلال عبادته وأخلاقه التي بني عليها من المنهج الرباني في القرآن الكريم[2].

(1) سورة فصلت (41): الآية ٣٠.

(2) ينظر: "عمارة الأرض في القرآن الكريم بين منهجين" لإيناس جلال القصاص، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور، العدد السابع، الإصدار الأول، الجزء الأول 1444هـ-2022م، ص135-196.

الفصل الرابع:

تعامل الإسلام مع المخالفين: رؤية في الأخذ والترك من المخالف

يُمكِننا النقدُ الفكري من وضع المخالف في إطاره (هيئته ومكانته) الصحيح، فيراه الناس على صورته الحقيقية وفي مكانه المناسب. ومن خلال التأطير نستطيع إزاحة كمًا كبيرًا من المعلومات التي تأتينا من كل مكان، تحاول خلط الحق بالباطل وصدَّ الناس عن الحق بعد إذ جاءهم. والسؤال: كيف تعامل الإسلام مع المخالف؟ سواءً المعترض.. ذاك الذي يتحدث بشبهات نظرية؟ أم ذاك الرافض للدين.. صاحب المواقف العملية؟ أم الذي يبدو "متحضرًا" يمتلك مفيدًا؟!

في القرآن الكريم منهجية للتعامل مع المخالفين.. تتكون- هذه المنهجية- من ثلاثة محاور رئيسية:

أولها: بيان أن قولهم، وخاصة في تفسير الوحي، وما فيه من إخبار عن الله الكريم الحليم، وعن الأمم السابقة، وعن الثواب والعقاب، كذب صريح، كما في قوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف: آية5)، أو كذب مفتعل، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: 71).

وثانيها: كشف الأسباب الحقيقية وراء صد الناس عن الهدى بعد إذ جاءهم، وهما سببان رئيسيان: الأول: كراهية اتباع الحق، وذلك لما في النفوس من كبر واستعلاء وحبٍ للدنيا وما فيها من شهوات للمتع الجسدية أو المتع النفسية، يقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (المؤمنون: 70)؛

والسبب الثاني: غياب الإيمان باليوم الآخر وما فيه من نعيم مقيم وعذابٍ أليم عظيم مهين، يقول الله تعالى: ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ (سبأ: 8).

وهذان المحوران عالجتهما حال الرد على شبهات المستشرقين والمنصرين للبعثة المحمدية.

وذلك تحت عنوان: كيف تتكون شبهات المخالف، وجعلت منهما محورًا ثابتًا في ثنايا النص(1). لمن شاء أن يرجع إليه.

والمحور الثالث: معالجة هؤلاء وما يقولون ويفعلون في سياق بيان الحق. بمعنى التعامل مع المخالف ضمن سياق خاص.

إن صناعة سياق مستقل وتناول المخالف- بكل ما عنده من ضار ونافع- داخل هذا السياق الخاص مقولةٌ مضطردة في المستوى النظري والمستوى العملي، عند المسلمين وعند غيرهم. ومن خلالها يمكن تفسير كثير من عوامل الصعود والتراجع لدى الأمم؛ ومن خلالها، أيضًا، يمكننا فك الاشتباك المعرفي الثائر حول عديد من القضايا الثائرة في ساحة الفكر الإسلامي المعاصر، وخاصة تلك التي تُثير غبارًا على نشأة الأمة الإسلامية وعلاقتها بغيرها من الأمم.

---

(1) نشرت كتابًا عن زكريا بطرس فيه تفصيل للرد عليه، تناولت فيه كيف أنه يتعمد الكذب المباشر، وكيف يتعامل مع النصوص (بتر وإعادة تفسير)، وكيف يخادع من يتلقون منه من خلال الاعتماد على مصادر منحرفة أو نصرانية بالأساس؛ وكانت الطبعة الأولى 2007، وتحت الطبع الآن كتاب آخر يتناول شبهات المستشرقين والرد عليها بعنوان "وما محمد إلا رسول". ولعل الله أن ييسر النشر قريبًا.

بدأت البعثة بخطاب مستقل عالج قضايا لم تكن معروفة في أم القرى ومن حولها، فكان إرسالُ رسولٍ وتنزيل كتاب، يُعرِّفهم بالله خالقهم وخالق كل شيء، وحق الله عليهم من عبادته وحده لا شريك له واتباع أمره واجتناب نهيه، وحقهم عليه إن هم فعلوا؛ ويحدثهم عن خلق الإنسان.. كيف بدأ أول مرة وكيف يحدث في الأرحام كل مرة. وبيان فساد عقائدهم فيما يعبدون من دون الله؛ ويعلّمهم ما يُصلح دنياهم ويلقون ثوابه في آخرتهم إن التزموا به إيمانًا واحتسابًا، فأمرهم بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا، وأحلَّ لهم الطيبات وحرّم عليهم الخبائث، ونظم شئون حياتهم على منهاجٍ لم يكن لهم به سابق معرفة من قبل. وعلّمهم أن الله استخلفهم في الأرض وطلب منهم عمارتها بما شرعه لهم على لسان رسوله ﷺ. وأن أعمالهم تحصى عليهم، وأنهم مبعوثون من بعد الموت، وبعد البعث حساب، وبعد الحساب جنة أو نار؛ وقص عليهم أنباء السابقين: كيف نجّى الله من أطاعوا، وكيف أهلك الله من عصوا رسل ربهم؟ بحديث لم يكن له ﷺ ولا لهم علم به؛ فكشف عن سياقٍ متصلٍ لرسل الله ومن آمن بهم في مواجهة الشيطان ومن استجاب لغوايته. فاستقر أن التاريخ صراع بين الحق والباطل؛ وصحح انحرافات اليهود والنصارى في حديثهم عن الله ورسله وما ابتدعوه في الشعائر والشرائع.

وفي هذا السياق بدأ تناول المخالفين، أولئك الذين حاولوا تلبيس الحق بالباطل، فاتهموه ﷺ، كذبًا، بالجنون، والسحر، والتعلم على يد غيره من الأعجمين،،، إلخ، كما مرّ في المحورين الأولين.

وفي المدينة كانت البداية من صناعة سياق عملي (واقعي) خاص بالمسلمين مع أنهم لم يكونوا الأكثرية (مقارنة بمن لم يسلموا مضافًا إليهم يهود قينقاع والنضير وقريظة ومن حول المدينة من الأعراب ويهود خيبر ووادي القرى وفَدَك): فكان المسجد، والمؤاخاة، والسوق، وفرض واقع جديد على ساكني المدينة من غير المسلمين، فكانت القيادة للمسلمين والتبعية لغيرهم ومن خالف عوقب وتم إخراجه من هذا السياق.

وبدأ ببعث السرايا حول المدينة لفرض سياق جديد على قريش ومن دخل معها في الإيلاف وشاركها عداوة المسلمين.

وإن حاولنا النظر لمساحة أكبر، وهي حركة الأمة (الحضارة) الإسلامية فسنجد أن الأمة الإسلامية نشأت من الوحيين (الكتاب والسنة)، ولم يتلق جيل التأسيس (الصحابة رضوان الله عليهم) شيئًا غيرهما، وقد نُهر من حاول المطالعة في صحيفةٍ لليهود "أَمُتَهَوِّكون أنتُم كما تَهَوَّكَتِ اليهودُ والنَّصارى؟ أمَا والذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بِيَدِه لقد جِئتُكُم بها بَيضاءَ نَقيَّةً"(1).

وما تم أخذه من علوم الآخرين إنما:

أ) جاء متأخرًا بعد التأسيس والفتوحات واستقرار المجتمع المسلم.

ب) وجاء في سياق خدمة الأمة الناهضة، بمعنى أن المسلمين أخذوا ما يحتاجون إليه لا كل ما وجدوه، وسيتضح هذا بعد قليل إن شاء الله.

---

(1) ينظر: "**شعب الإيمان** " للإمام أحمد بن الحسين البيهقي، (الرياض، مكتبة الراشدين، 1423هـ /2003م)، ج7، ص171.

ج) وجاء في التدابير العملية لا في منظومة العقائد المؤسسة **للأمة المسلمة.**

مثال ذلك: البريد، والعسس، والدواوين، وصك العملة في عهد عبد الملك بن مروان(1)، وأخذوا بعض ما استحسنوه من الفرس في إدارة شئون الحياة اليومية، مثل إسقاط الضرائب عن فقراء المزارعين، وإعطاءهم البذور الجيدة دون مقابل.

وأكرر للتأكيد: لم يتم نقل ما عند المخالف إلا بعد إنشاء سياق خاص من الكتاب والسنة، وتم النقل بانتقائية حيث مارس المسلمون النقد على ما وجدوه، فراجعوا وصححوا وأخذوا ما يخدم مشروعهم(2)، لا أنهم أخذوا ما وجدوه كما هو، ولا أن الآخر هو الذي دخل بيننا وفرض علينا بعض ما عنده، وعلى سبيل المثال: أخذ عمر رضي الله عنه بالتدوين، وهو من الأمثلة التي يكثر الإتيان بها على الاقتباس من الآخر. الذي حدث أن عمر والصحابة رضي الله عنهم أخذوا الفكرة (تدوين الناس في سجلات) من أجل تحقيق هدف خاص لم يظهر إلا في الشريعة الإسلامية وهو تفريغ بيت المال مما قد جاءه من المال (توزيع الخمس من الغنائم على مستحقيها)، فكتبوا أسماء الناس كي لا ينسوا أحدًا، وكي لا يتكرر العطاء (3).

(1) حدث ذلك بعد أن تهدده الرومان بمنع العملة الذهبية، واستعان بخالد بن يزيد بن معاوية، وكانت لديه نزعة معرفية تجاه العلوم الطبيعية؛ ولم يكن يترجم أو ينقل علوم الآخرين. والذين يقولون بالتأثر المبكر يتحدثون عن القرن الثاني من الهجرة، وعن حالة أو حالتين، وعن وريقات وجدت وترجمت في نطاق ضيق جدًا. وظهور الترجمة وانتشارها جاء مع بداية الانحدار (القرن الثالث الهجري)، مع الأخذ في الاعتبار أن الترجمة عنيت في بدايتها بالفلسفة لا بالعلوم التطبيقية كما يشي حديث هؤلاء، وفي القادم من النص مزيد بيان.

(2) ينظر: "**علم الرياضيات في التاريخ الإسلامي**"، لعبد الحليم عويس، موقع شبكة الألوكة، أخذ بتاريخ 2021/12/31، من الرابط: https: //2u.pw/hJac3 .

(3) في المشروع الفكري المبارك الذي يقدمه الدكتور جميل أكبر توضيح لهذا المبدأ في الشريعة الإسلامية وهو: "نزع المال من السلطة" أو "تفريغ بيت المال من المال أولًا بأول".

وكان نقلًا لما يحتاجونه، لا نقلًا لما في أيدي الأمم القوية كونها قوية. فقد سعوا لتعلم الفَلَك بحثًا عن طريقة لضبط مواقيت الصلاة في البلاد التي لا تنتظم فيها حركة الشمس نهارًا وخاصة في الشتاء[1]؛ وحين انتشرت تجارتهم ووجدوا أن طريقة الحساب التقليدية لا تكفي لحساب عملياتهم التجارية جدّوا في تعلم الرياضيات، فكان الخوارزمي والبحث عن "الصفر"، وهكذا[2].

ولم يكن تتلمذًا على يد علماء الأمم السابقة، فما حصّلهُ المسلمون من غيرهم كان شيئًا مُهملًا تلقُّوه بالوجادة (وجدوا وثائق عامتها مهمل)، ولولا أنها وُضعتْ في سياقٍ جادٍ ناهضٍ لما تطورتْ.

لم نتعلم من هؤلاء بالمعنى المعاصر للتعلم (التتلمذ)، بل أخذنا منهم ما نراه نافعًا لنا وأعدنا صياغته ليناسب منظومتنا العقدية. ومن يتتبع سيرة أوائل علماء الطبيعة المسلمين، كالخوارزمي والبيروني وابن سيناء وابن الهيثم، يرى بوضوح أنهم متأخرين عن فترة التأسيس وأنهم أخذوا مخطوطات لغيرهم وقاموا بتنقيحها وتطويرها، وأنهم لم يتتلمذوا على أيدي علماء أمة أخرى متقدمة، وإنما أفادوا من كتابات (مخطوطات) وجدوها مهملة في الغالب[3].

(1) من أفضل من تحدث عن جهد المسلمين في العلوم التقنية الدكتور جورج صليبا وله عديد من الكتب واللقاءات المتلفزة يتحدث فيها شارحًا ومدافعًا عند دور المسلمين في التقدم التقني، كان أخرها وأشملها لقاء في "بودكاست ثمانية". وينظر: "**الفكر العربي: نشأته وتطوره**"، لجورج صليبا، (لبنان، منشورات جامعة البلمند، 1998م).

(2) ينظر: "**الأعلام**" لخير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، (بيروت، دار العلم للملايين، 2002م)، ج7، ص116.

(3) ينظر: "**العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية**"، لـ دونالد هيل، ترجمة أحمد فؤاد الباشا، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2004). وذكر ابن خلدون في مقدمته أن المسلمين لم

وإن الاتصال الثقافي (علم الكلام والفلسفة) جاء متأخرًا كما الاتصال في العلوم الطبيعية، وارتبط بنهاية الصعود وبداية التراجع، ولم يكن أبدًا من عوامل النهوض.

لم يكن الأمر كما يدعي هؤلاء حضارة تسلمت من حضارة. وإنما وحي أغاث الله به الأرض بعد موتها. أحيا الله به قومًا وأحيا به وبهم آخرون ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: من الآية52).

وفعلت العلمانية المعاصرة ذات الشيء: أنشأت سياقًا خاصًا يرفض الدين كمصدر للمعرفة ويتبنى الوضعية (Positivism) منهجًا للحياة، ثم اقتبست منا ما يخدم سياقها، أو أعادت صياغة ما أخذته منا ومن غيرنا ليتناسب مع سياقهم الجديد (الإلحاد الكلي أو النسبي). وفرضوا علينا قضاياهم هم، مثل: التبرج، والسفور، وتفتيت الأمة لكيانات صغيرة (دول) بدعوى التحرر والاستقلال، ونموذجهم في الحكم (الدولة القومية الحديثة)، أو تنحية الشريعة، بل وما في التفاصيل من قضايا فرعية تتعلق بحياة الفرد العادي.

إن كثرة الشوائب التي خالطتنا وكدرت صفو عقيدتنا ومجتمعاتنا، من أهم أسبابها أننا فقدنا السياق الخاص بنا.. أننا في سياق غيرنا، ولذا فإن أفضل الطرق لتنقية

يستفيدوا من علوم الفرس، وذكر، أيضًا، أن أول اتصال معرفي بعلوم الرومان كان في عهد العباسيين (أواخر القرن الثاني الهجري)، ينظر: "**ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**"، لعبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون، (بيروت، دار الفكر، 1408هـ/1988م)، ج631/1.

شوائب الآخر تتمثل في الخروج من سياق المخالف وإنشاء سياق خاص بنا كما كان أول مرة. وهنا يثور سؤال: كيف نبني سياقًا خاصًا ونحن غرقى في الشوائب وتائهون حيث يراد لنا وبنا، لا حيث نريد نحن (أتحدث عن المجموع لا عن الجميع)؟

الفصل الخامس:
أمثلة تطبيقية على العمران:
بناء المدن في الإسلام:

العمارة معنى واسع، وتشمل تنظيم الاجتماع البشري. وليست فقط البنيان. والاهتمام بالعمارة له أبعاد ثلاثة:

أولًا: المنظومة العقدية (النسق العقدي/ المعرفة) التي أنتجته، وهي هنا: مبادئ الشريعة، مثل: الشفعة، والوراثة، مبدأ لا ضرر ولا ضرار، مبدأ حيازة الضرر.

ثانيًا: البيئة= طبائع الناس= الأعراف السائدة= المناخ العام (عوام البيئة التي تحدد شكل العمران).

ثالثًا: المنتج النهائي= المدينة في شكلها النهائي: طريقة تعامل الناس مع بعضهم.. الطرق الأبنية.. (أقواس، ودوائر، بيوت مفتوحة للداخل أو الخارج)= وكذلك الأعراف التي ترسخها القيم بمرور الوقت.

ولذا فإن هندسة العمران تعد من أوضح الأمثلة على خصوصية هذه الأمة، أو بالأحرى خصوصية كل منظومة عقدية في إفراز واقعها الحضاري (العمران) بما يتناسب معها، حيث ظهر العمران من خلال قيمة كبرى هي "تمكين الناس" مما أودع الله في الأرض من خيرات، وقد فصّل في هذا الدكتور جميل أكبر في مشروع "قص الحق"، وأعرج هنا على خصوصية العمران بمعنى (بناء المدن)، فقد بنيت المدن في هيئة أقواس ودوائر، وهذا الشكل (الأقواس والدوائر) يترجم قيمة عليا عندنا، هذه القيمة هي محورية المسجد في قلب المدينة، كمحورية الكعبة لكل المسلمين. وذلك

أن المسلمون الأوائل.. هؤلاء الذين لم يتلقوا إلا الوحي ارتكزوا على المسجد. يقومون ببنائه في أولِ يومٍ ينزلون فيه مكانًا ما، وبجواره السوق تسهيلًا على الناسِ في قضاءِ حوائجهم، بمعنى أن تكون الأغراضُ اليوميةُ للبيت بجوارِ المسجدِ الذي يُؤتى إليه كلَّ يوم خمس مرات فيسهل إحضارها من المصلين لبيوتهم هم أو للبيوت التي يمرون عليها ولا عائل عندهم يقوم بحاجتهم (1). ثم يستديرون حول المسجدِ في حلق كما يفعلون حول الكعبة. من هنا جاءت فكرةٌ جديدةٌ للعمرانِ (تعميرِ المدنِ)، في هيئةِ دوائرٍ وأقواسٍ، وأصبحَ الفنُّ الإسلاميُّ يتكئُ على فكرة الدوائر في البنيان وفي تشييد المدن، وظهرت بركة هذا الأمرِ في نواحي عدة، منها: قربُ الوصولِ لمركزِ المدينةِ (المسجد الجامع) من أطرافها.. بمعنى اجتماعهم خمس مرات كل يوم أو على الأقل مرتين (الفجر والعشاء) كل يوم، ولا يغيب ما في ذلك من الألفة والمودة والتواصل بين الناس؛ وكذلك مساعدة الناس بعضهم بعضًا في قضاء حوائجهم من الأسواق (2).

(1) من الحكايات المنشرة عن النموذج القديم، أن المرأة التي لا عائل لها كانت تضع المال وما تريده في ورقه أمام بيتها وقت الصلاة، ومن يمر يأخذ المال ويحضر ما في الورقة من السوق ثم يضعه على باب البيت وهو عائد.

(2) انظر: هيام مهدي سلامة، **جماليات الشكل الهندسي في الفن الإسلامي وتطبيقاتها المعاصرة**، مجلة العمارة والفنون، العدد الثالث، صيف 2016م، ص307-321. ولمزيد من الأبحاث في هذا المضمون انظر- إن شئت- موقع مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية، أخذ بتاريخ 28/11/2021م، من الرابط: https: //mjaf.journals.ekb.eg/

القتلى في معارك الإسلام والقتلى في معاركِ الأممِ الأخرى:

كانت معارك الأمم الأخرى بمثابة كارثة تَحل بأهل المنطقة التي يحدث فيها القتال، ليس فقط من تعرض المنطقة لإضعاف قدراتها المادية بسبب تمويل الجيش طوعًا أو كرهًا، وإنما كانت الكوارث تحل لسببٍ آخر أهم وهو عدم دفن القتلى وترك الجثامين تتعفن، مما يؤدي إلى انتشار الأوبئة والأمراض التي تفتك بأهالي المنطقة، وتكون المحصلة أن عدد من يموت بعد المعركة، من الأوبئة والأمراض، أضعاف من يموت في القتال المباشر حال المعركة، وهذا مشهور لمن يتتبع المعارك الكبرى في أوروبا في تاريخها القديم والحديث.

بخلافِ المعاركِ الإسلاميةِ التي لم تكن تسببُ أي ضررٍ للمنطقةِ التي يَنشبُ فيها القتالُ ولم يكن يُقتل في المعركة إلا من يُجهز عليه حالَ القتال. والسبب هو أنَّ الفردَ المسلمَ امتثلَ لأمرٍ رباني، هذا الأمرُ الرباني هو: التعجيلُ بدفنِ الميتِ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ (سورة عبس: الآية 21)، فكان المسلمون يدفنونَ القتلى (منهم ومن غيرهم) يومًا بيوم.. امتثالًا لأمر الله دون البحث عن الحكمةِ وراء هذا الأمر.. امتثلوا للأمرِ كونه من الله العليمِ الحكيمِ، وبالتالي لا تتعفنُ الجثثَ ولا تنتشرُ الأمراضُ المعديةُ كما حدث في معاركِ الأممِ الأخرى، فقد كانوا يَتركونَ الجثثَ تتعفنُ وبالتالي تنشرُ الأمراض في المنطقة فيصاب أهلها بالطاعون. فمعالجُة هذا الأثرِ السيءِ للمعاركِ لم يأتِ بعد التعرفِ على خطورةِ تركِ الجثثِ تتعفنُ، وإنما جاء بالتأدبِ بأدبٍ رباني تم الالتزام به دون أن يُعرف سببُهُ. بمعنى أن المقاتِل المسلم وهو يُسارع لدفن القتلى بعد

يوم طويل من القتالِ لم يَفعلْ ذلك طلبًا للعمران وإنما امتثالًا لأمر الله وحدث العمران دون قصدٍ.. جاء ثمرةً للامتثال لأمر الله. وصدق الله " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ"[1]

(1) سورة الأعراف: من الآية96.

الفصل السادس:

أمثلة تطبيقية تبين أثر الكفر والعصيان في خراب العمران:

بعد عرض النصوص الشرعية التي تبين أن وجود المعصية يستلزم خراب العمران، أحاول تقديم نماذج عملية من واقعنا المشاهد تبين كيف تفسد الأرض، مع التقدم التقني والقدرة على التعمير التي وصل إليها الإنسان المعاصر في عديد من المجالات، حين لا يوجد إيمان.

وحاولت عرض عددٍ من الأمثلة تمثل جوانب الحياة المختلفة، فكان أولها ممثلًا للجانب الخلقي المتعلق بالشخص وسلوكه بين الناس، وهو ظهور الفاحشة (الزنا)، وثانيها يتعلق بالجانب النفسي المستتر عن عيون الناس فكان المثل بـ "الشح والبخل"، وثالثها يتعلق بالتعاملات المادية فكان المثل بتحريم الربا. هذا وإن السبب في تمكن أصحاب هذه الأمراض الخلقية من واقع الناس هو بالأساس غياب منظومة الحقوق (حركة المال بالأساس، وحرية حركة الناس، أو تمكين الناس من الخيرات)، وهو مفصل في أطروحة "قص الحق" للدكتور جميل أكبر والتي أشرت إليها مرارًا في هذا البحث.

ظهور الفاحشة:

في الحديث: "يا معشر المهاجرين، خمس إن ابتليتم بهن ونزل فيكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعملوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا الزكاة إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم

عدوهم من غيرهم وأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلا ألقى الله بأسهم بينهم"[1].

وما ورد في نص هذا الحديث الشريف نشاهد تأويله في واقعنا المشاهد، فقد ظهرت الفاحشة وخاصة في المجتمعات الغربية، وعمل الناس بها، بل سنّوا قوانين تحمي من يجاهر بها، فابتلاهم الله بالطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، وكلما عالجوا مرضًا ظهرت فيهم أمراض أخرى أشد فتكًا. وذلك أنه مع تقدم تقنية تشخيص الأمراض، ومع تقدم صناعة الدواء، إلا أن الأمراض تسابق الطب وتسبقه، فمن الزهري، إلى السرطان مرورًا بالإيدز. وفي التفاصيل نجد أن قدر الله يسير بين الناس بأسبابٍ ظاهرة، فالميكروبات تمتلك خاصة تطوير ذاتها ضد الأدوية التي يصنعها المختصون، وبالتالي حالة من التسابق بين الميكروب والدواء، والميكروب يسبق، والحل في تجنب أسباب المرض بداية. وأسباب المرض كلها من مخالفة شرع الله، بمعنى أن الحل هو الاستقامة على منهج الله، بمعنى أن الفسق والفجور من الأسباب المباشرة للخراب.

الشح والبخل:

يعد "الشح" أحد الأمثلة على الصفات الذميمة التي تكون سببًا في خراب العمران، وقد ذُكر في كتاب الله في ثلاثة مواضع: أولها: في بيان سبب استمرار الخصومة وعدم حدوث الصلح بين المتخاصمين، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: من الآية 128)؛ وثانيها: في موضع النصرة والموالاة بين المهاجرين

---

(1) أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1411هـ/1990م)، كتاب الفتن والملاحم، ج4، ص582. وقال صحيح الإسناد.

والأنصار﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الحشر: من الآية 9)؛ وفي موضع التذكير بتقوى الله وإنفاق المال في سبيله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة التغابن: من الآية 16).

وجاء في الحديث الشريف أن الشح سبب لهلاك الأمم يقول رسول الله ﷺ: «اتقوا الظلم، فإن الظُّلم ظُلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشُّحّ، فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دِماءهم واستحلّوا محارمهم"[(1)]، وفي رواية أحمد زيادة: "إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا"[(2)].

والشُّحُّ هو شدة الحرص على الشيء والإحفاء في طلبه، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النفس عليه، يقال هما يَتَشاحّان على أَمر إِذا تنازعاه لا يريد كل واحد منهما أَن يفوته[(3)]، والشح أعم من البخل؛ لأن البخل يختص بمنع المال، والشح بكل شيء، والشح لازم (كامن في النفس) كالطبع، والبخل غير لازم، فمن

(1) الإمام مسلم، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (صحيح مسلم)**، (بيروت، دار إحياء التراث الإسلامي، د.ت)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ج4، ص1996.

(2) الإمام أحمد بن حنبل، **المسند**، (القاهرة، دار الحديث، 1416هـ/1995م)، أول مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ج6، ص310.

(3) محمد بن منظور، **لسان العرب**، (بيروت، دار صادر، د.ت)، مادة (شحح)، ج2، ص495.

بخل فقد أطاع شحه، ومن لم يبخل فقد عصى شحه ووقي شره وذلك هو المفلح[1].
وقد ذكر الماوردي في "أدب الدنيا والدين" أن الشح والبخل ذريعة إلى كل مَذَمّة، وخاصة أخلاق أربعة، وهي: الحرص والشره وسوء الظن ومنع الحقوق. فأما الحرص فهو شدّة الكدح والإسراف في الطلب. وأما الشره فهو استقلال الكافية والاستكثار لغيره حاجة. وأما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل فإن كان بالخالق كان شكا يؤول إلى ضلال وإن كان بالمخلوق كان استخانة يصير بها مختانا وخوّانا لأن ظن الإنسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه فإن وجد فيها خيرا ظنه في غيره وإن رأى فيها سوءا اعتقده في الناس. وأما منع الحقوق فإن نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد إلى ترك مطلوبها فلا تذعن لحق ولا تجيب إلى إنصاف. وإذا آل البخيل (أو الشحيح من باب أولى) إلى ما وصفنا من هذه الأخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير مرجوّ ولا صلاح مأمول[2].

والمقصود أنه حين يضعف الإيمان تظهر الأخلاق السيئة (كالشح)، والذي يؤدي إلى القطيعة والفجور وسفك الدماء والظلم، وهذه كلها من التخريب في العمران المعنوي والمادي ولا ينفع معها حضور وفرة من المال ورقي في الأدوات.

وإذا ما خرجنا من دائرة عصاة المسلمين إلى الدائرة الأوسع، أعني الذين لم يؤمنوا بالله وما أنزل على رسوله ﷺ نجد أن الشح تمكن منهم فأدى إلى، ليس فقط الحرص والشره ومنع الحقوق على المستوى الشخصي، وإنما حدثت حالة من تعميم هذه

(1)الإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، (بيروت، دار المعرفة، 1379هـ)، ج9، ص508.

(2) الإمام علي بن محمد بن محمد البصري (الماوردي)، **أدب الدنيا والدين**، (بيروت، دار ومكتبة الهلال، 1421هـ)، ص199، 200.

الأخلاق السيئة (الحرص والشره ومنع الحقوق أو الظلم والبغي) فصارت أخلاقًا للدول والتجمعات البشرية (المجتمعات) فكانت النتيجة أن انتشر الفقر والجوع رغم أن أسباب الخير كثيرة، ومن الدراسات الغربية الجادة التي تبين أثر صفة الشح في ظهور الفقر والجوع على مستوى العالم، دراسة بعنوان "صناعة الجوع[خرافة الندرة]"(1)، وفيه أمثلة لقلة من الأغنياء تتعمد إهدار الثروة من أجل مزيدٍ من الكسب، دون نظر لأضرار تسببها لكثير من الناس، فكانت النتيجة أن ازداد الفقير فقرًا وازداد الغني غنى. ولذا رصد الدارسون ما سمّوه بـ "استراتيجيات صناعة الندرة" وذلك من أجل الحفاظ على أسعار السلع كما هي أو زيادتها، وضربوا المثل بما فعلته بعض الدول الكبرى من تخفيضٍ حاد في إنتاج القمح للحفاظ على أسعاره، ومنع دول العالم الثالث من أن تنتج ما يكفيها من الغذاء، وكانت النتيجة، حسب هذه الدراسة، وجود أكثر من نصف مليار جائع! وكانت النتيجة، كذلك، أن 3٪ من سكان العالم يتحكمون فيما يقارب 77٪ من مساحة الأراضي الزراعية، وأن ما يزرع من مجمل الأراضي الزراعية لا يتجاوز 44٪، بينما لا تصل النسبة في بلدان العالم الثالث إلى 20؛ ومثَّل القائمون بهذه الدراسة بأمثلة تفصيلية كثيرة، منها: انهيار سعر الأرز في وقت الحصاد كل عام، يحدث ذلك عمدًا بفعل "كبار رجال السوق"، مما يضطر الفلاحون إلى بيع كميات كبيرة ليسددوا ديونهم الربوية. وفي الكتاب أمثلة كثيرة تبين سيطرة قلة في الإنتاج والأسعار مما جعل المال دولة بين الأغنياء فازدادوا غنى وتعديًا ولم يستفد كثيرون مما حدث من تطور تقني يحسبه بعضنا عمرانًا، أو تعميرًا في الأرض. بمعنى أن **غياب الإيمان بالله وعدم التخلق بما أمرنا به أخلاقٍ حميدة أضاع فائدة التقنية الحديثة بل جعلها تعمل في اتجاه مضاد..**

(1) انظر: فرانسيس مور لابيه و جوزيف كولينز، **صناعة الجوع (خرافة الندرة)**، ترجمة أحمد حسان، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1984م).

في اتجاه التخريب المادي أو المعنوي أو كلاهما، أو جعلها لا تفيد إلا قلة قليلة استذلت الناس واستعبدتهم.

تحريم الربا:

في صريح القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية أن التعامل بالربا يؤدي، حتمًا، إلى نقصان المال وذهاب بركته، يقول الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة:276)، قال ابن كثير رحمه الله: يخبر الله تعالى أنه يمحق الربا، أي: يذهبه، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه، أو يَحْرِمَه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذبه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة(1). وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرِّبَا إِلاَّ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى قِلَّةٍ».(2)، ونجد تأويل ذلك في واقعنا المشاهد فالربا أحد الأمثلة التي من خلالها يمكننا أن نرى بوضوح كيف أن غياب الإيمان أدى إلى عدم حدوث عمران حقيقي، رغم وفرة المال، ورغم التطور التقني في مجال الخدمات المالية، ويتحدث خبراء الاقتصاد على أن إدارة المال على مبدأ الربا يؤدي إلى أضرار جسيمة تنتهي بخراب العمران، ومن أهم هذه الأضرار: ظهور خلل في توزيع الثروة والموارد الطبيعية، وذلك أن المرابي يربح دائمًا، وبالتالي يزداد غني ويزداد المقترض (الفقير) فقرًا؛ ومن آثار الربا فَقْدُ المال كثيرًا من قيمته مما يؤدي إلى ارتفاع الأسعار (التضخم)؛ ومن آثاره عدم امتزاج عناصر الإنتاج، وذلك أن صاحب المال (المقرض) لا يدخل في عملية الإنتاج (التصنيع)، حيث أن دوره يقتصر على تقديم المال مع

(1) الإمام ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1419هـ)، ج1، ص550.

(2) **سنن ابن ماجة**، (بيروت، دار الرسالة العالمية،1430هـ/2009م)، كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا، ج3، ص382. وصححه السندي في حاشيته. انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه)، (بيروت، دار الجيل، د. ت)، ج2، ص765.

ضمان رأس المال والربح، ويتحمل المقترض مخاطر الإنتاج وحده وهذا من شأنه أن يقلل خبرات العمل (حيث يقتصر التعاطي مع التصنيع والتجارة على المقترض فقط دون الغني صاحب المال)؛ ومن آثار الربا الضارة التي أدت إلى تخريب العمران تحول المال (النقود) إلى سلعة، وظهور المتاجرة في الدين مما راكم الديون على الفرد العادي[1].

والمقصود أن الانحراف عن الشريعة بإقامة المال على منظومة الربا أدى إلى خراب العمران رغم التقدم التقني في مجال المال، فحين حضر الكفر والعصيان ظهر الفساد في الأرض، كما قال الله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2].

البيئة والإنسان المعاصر:

في العقود الأخيرة بدأ التنادي لحماية البيئة ضد المخاطر التي تتهددها[3]، ويقصد بهذه المخاطر الاستنزاف الذي أصاب الموارد الطبيعية كالفحم والبترول والغاز الطبيعي والمعادن، والموارد المتجددة مثل: مصايد الأسماك والغابات والمراعي والأراضي الزراعية؛ وما أعقب كثرة الاستخدام من تلوث التربة الزراعية نتيجة الاستعمال الكثيف للمخصبات الزراعية والمبيدات الحشرية، وتلوث المجاري المائية (الأنهار والبحيرات)، وتلوث الهواء بالغازات الضارة المتصاعدة من المصانع؛ ويلحقون بذلك

(1) ينظر: كمال توفيق خطاب، **الربا والفائدة بين الفقه والاقتصاد**، موقع مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق، أخذ بتاريخ 2021/12/7 من الرابط: https: //2u.pw/4oPaE

(2) سورة الروم: الآية 41.

(3) كان أول نداء في 22 إبريل 1970م، واتخذ عيدًا، وسمي بـ "يوم الأرض" ويتضمن الآن فعاليات نظمتها عالميًا شبكة يوم الأرض في أكثر من 193 بلدًا حول العالم، ولهم موقع خاص على الشبكة العنكبوتية هذا رابطه: Earth Day: The Official Site | EARTHDAY.ORG

الزيادة المضطردة في عدد السكان والتي تمثل، حسب زعمهم، خطرًا على الموارد الطبيعية وتنذر بمزيدٍ من النفايات والتلوث؛ وإن أخطر ما في مشاكل البيئة أنها لا تنحصر في منطقة دون غيرها، بمعنى أن إهمال بعض البشر يتضرر منه كثير منهم إن لم يكن جميعهم، ومثال ذلك مشكلتي ثقب الأوزون وارتفاع درجة حرارة الأرض.(1)

ويهمنا هنا رصد أن أهم الحلول المقترحة تتجه إلى طبيعة بناء الفرد. من فرد مستهلك للموارد ومنتج للمخلفات إلى فرد مقتصد في تعاطيه مع الموارد وبالتالي مخرجاته من المخلفات بمختلف أنواعها(2). لذا نستطيع أن نقول أن السبب في **الأزمة البيئية التي تمر بالبشرية اليوم راجع إلى المناهج العلمانية التي أنتجت الإنسان المعاصر، أو المناهج التي حولت الإنسان من إنسان مقتصد ينافس في تحصيل المكارم إلى إنسان مستهلك، ينفق ماله في متعٍ وملذاتٍ مؤقتة ولا يكاد يتوقف عن إفراز مخلفات تؤذي البيئة.** ولا تتوقف المشكلة على أسباب الأزمة فقط، بل على الحلول التي يقترحونها، فمن ضمن الحلول التي يقترحونها التخلص من بعض البشر عن طريق نشر الأوبئة والأمراض، أو أنهم يرون أن بعض البشر عالة لا قيمة لهم(3)، وهذه كارثة أخرى ترجع لغياب الإيمان بالله وأنه ضمن الرزق لعباده، يقول الله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ

---

(1) ترافس واجنر، **البيئة من حولنا دليل لفهم التلوث وآثاره**، ترجمة: محمد صابر، (القاهرة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، 1997م).

(2) زيد بن محمد الرمّاني،"**على من تقع المسؤولية الحقيقية لحماية البيئة؟**"، موقع شبكة الألوكة، قسم ثقافة ومعرفة، أخذ بتاريخ 2021/12/11، من الرابط: على من تقع المسؤولية الحقيقية لحماية البيئة؟ (alukah.net)

(3) هارولد.ف. دورن، "النمو السكاني في العالم معضلة دولية"، في: "**التحركات السكانية في تاريخ أوروبا الحديث**"، لهربرت موللر، **ترجمة شوقي جلال**، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971)، ص 228-249.

وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة: 268). و" يعدكم" معناه يخوفكم" الفقر" أي بالفقر لئلا تنفقوا. فالشيطان يثبط الإنسان عن الإنفاق في سبيل الله، وهو مع ذلك يأمر بالفحشاء وهي المعاصي والإنفاق فيها[1]، فالإنسان المعاصر الذي انتجته مناهج العلمانية من ناحية يتسبب في حدوث الأضرار كونه استهلاكيًا ولا يراقب ربًا في تصرفاته ويحتاج إلى جهدٍ كبير في ضبط سلوكه، ومن ناحية أخرى يقدم حلولًا أكثر ضررًا على أخيه الإنسان، والسبب غياب الإيمان بالله. فلا عمران بلا إيمان، ولا حاجة لنا في الجري وراء القوم بحثًا عن "تقدم" أخرنا وأخذنا بعيدًا عن الحياة الطيبة التي وعد الله بها المؤمنين في الدنيا والآخرة، إن السعادة.. كل السعادة.. وإن الرقي.. وإن كل جميلٍ في اتباع ما أنزل الله على رسوله ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (النحل: 97).

---

(1) الإمام القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، (القاهرة، دار الكتب المصرية، 1384هـ/1964م)، ج3، ص328.

الخاتمة:

أردت أن أسمي هذا الكتاب بقول الله تعالى: "رُوحًا من أمرنا" لتكون الرسالة التي أحاول إيصالها شديدة الوضوح وهي أن الوحي (النص الشرعي وتطبيقه في سنة الحبيب ﷺ والصحابة من حوله) يكفي تمامًا لإعادة صياغة الإنسان في أحسن حال كما قد كان. وأن الوحي لا يعمل الآن.

حاولت القول أن بداية الطريق في التعرف على الله الأحد، الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، والاتجاه إليه بالعبادة.

حاولت تقديم إجابة على سؤال يشغل كثيرين وهو: كيف أحدث الوحي هذا التحول الهائل في الإنسان والمجتمعات؟ وكيف لا يُحدث ذات الأثر وهو في أيدينا وفي صدورنا؟

والإجابة في أن الوحي (كتابًا وسنة) أوجد واقعًا جديدًا. في هذا الواقع مكن الناسَ من الخيرات التي قدّرها الله في الأرض، فأطلق أيديهم في التملك والإحياء، فمن سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو له، وجعلهم شركاء في مقومات الحياة (الماء والنار والكلأ)، وأمَّن الطريق، وحثهم على السعي في الأرض ابتغاء ما قدّر الله في الأرض من بركات وخيرات ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ (فصّلت: من الآية 10)؛ ونزع من السلطة المال (تملكه، أو السيطرة عليه والتحكم فيه[إدارته])، فكانت الدولة في الإسلام هي دولة الناس والسلطة تحكم بينهم لا أنها تحكمهم. فكان الفرد في النموذج الإسلامي الأول غير الفرد الموجود الآن من حيث الحقوق والقدرة على الفعل.

كما أن الفرد الأول تلقى القرآن الكريم وحده دون غيره من المناهج الأرضية فصاغه القرآن الكريم خلقًا آخر.. أحياه بعد أن كان ميتًا وجعل له نورًا يمشي به في الناس. وذلك من خلال غرس عدد من القيم والمفاهيم من أهمها: التأمل (التفكر/ التدبر)؛ وجعل التفاضل بالتقوى، وجعل الإتقان قيمة في حد ذاته. ولبناء هذه القيم كانت المنهجية المتبعة هي: التكرار، والتصريف، والتدرج (النمو التدريجي).

أما الفرد الحالي فإنه في سياق مخالف وبيئة مخالفة. يتغذى بالعلمانية (الوضعية) ومن ثم يفهم القرآن الكريم والسنة في أطر العلمانية (أسلمة العلمانية) ويحاول إيجاد حلول ضمن أطر هذه المنظومة.. يحاول أن يطوع تعاليم الإسلامي للأطر العلمانية؛ ولذا لا يستطيع أن يضيء لنفسه ولمن حوله كما كان إنسان الوحي الأول.

د. محمد جلال القصاص

صفر 1446هـ/ أغسطس 2024م

الكاتب:

- د. محمد جلال القصاص.
- حاصل على الدكتوراة في العلوم السياسية. كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. جامعة القاهرة2021.
- حاصل على الماجستير من معهد البحوث والدراسات العربية_القاهرة 2015.

نشر له:

1) عمارة الأرض بالعابدين: كيف أحدث الوحي هذا التحول الهائل في الإنسان والمجتمعات (تحت الطبع).
2) وما محمد إلا رسول: رؤية نقدية لتفسير المستشرقين للبعثة المحمدية (تحت الطبع)
.
3) الكذاب اللئيم زكريا بطرس- دراسة نقدية مختصرة.2007.
4) مناقشة هادئة لإسلاميات عباس العقاد، ط1 2009، ط2 2024.
5) أثر المشاركة السياسية على الفكر السلفي في مصر.2016.

هذا الكتاب:

نص مركز فيه محاولة للإجابة على سؤال ثائر لا يكاد يهدأ؛ وهو: كيف أحدث الوحي (كتابًا وسنة) هذا التأثير الضخم السريع في أم القرى ومن حولها؟، وكيف لا يُحدث ذات التأثير في واقعنا المشاهد؟! رغم أنه هو هو ذات الوحي، نؤمن به ونتلوه آناء الليل وأطراف النهار؟!

والإجابة أن الوحي حرر الإنسان وأعاد بناءه من جديد بمنظومة من القيم العقدية التي أثمرت قيمًا عملية.. تجلّت- هذه القيم الإيمانية والعملية- في أنماطٍ جديدة من السلوك.

فقد حرر الوحيُ الإنسانَ من أسر الأعراف والتقاليد وربطه بالله وحده لا شريك له. يؤمن به ويتوكل عليه، ويتوجه إليه- وحده لا شريك له- في شأنه كله. وحرره من أسر الأرض (الجغرافيا) فحثه على المشي في مناكبها، وأمّن الطريق، وفرض لابن السبيل من المال العام والخاص (الزكاة والصدقة)؛ وفكّ الارتباط بين السعي والرزق، فجعل السعي وبذل الجهد واتقان العمل مقصودًا لذاته طلبًا لمرضاة الله وابتغاءً لفضله؛ والرزق يأتي به الله لمن شاء من حيث يحتسب أو لا يحتسب.

وحرره من تسلط الملأ وأرباب السلطة، فجعل الجميع سواسية، من سبق لشيء لم يسبقه إليه مسلم فهو له، ومن أحيا أرضًا فهي له، والناس شركاء في أساسيات الحياة (الماء، والكلأ، والنار). فكانت الدولة دولة الناس. فعاش الإنسان المؤمن حرًا في عقيدته لا يتعلق بغير الله، وحرًا في حركته يسير حيث يشاء ويأخذ بقدر جهده، بلا ضرر ولا ضرار.

وتم بناء هذه القيم الإيمانية والعملية من خلال ثلاث آليات، هي: التكرار، والتصريف، والتدرج. وتساعد هذه الثلاثة في فهم كتاب الله وأسمائه وصفاته؛ وفهم ما يُحدثه المبطلون في واقعنا المعاصر كذلك.

د. محمد جلال القصاص